صورة الغلاف

لوحة تمثل عين إبل وعطاءاتها خلال المئة سنة من أجل لبنان

تصميم ربيع خريش

الخامس من ايار ١٩٢٠

شربل بركات

عين إبل

الخامس من ايار ١٩٢٠
ذكرى التضحية الكبرى في سبيل لبنان

بحث تاريخي بقلم الكولونيل شربل بركات

الخامس من ايار ١٩٢٠

شربل بركات

تمهيد

بعد مئة عام ونيف على أحداث ١٩٢٠ التي دفعت فيها عين إبل ثمن إعادة رسم حدود لبنان الكبير في جنوبه، والتي كان دافع عنها، عبر العصور ومنذ آلاف السنين، سكان منطقة صور التاريخية، لابقائها واحة الحرية التي تتنفس منها المدينة الأم وتحافظ من خلالها على المدى المطلوب للتبادل المنظم والتعاون المجدي على العيش الكريم، وتأمين انطلاق قوافل تجارتها صوب المشرق؛ باتجاه سهول حوران وما بعدها في بادية الشام إلى ما بين النهرين، أو باتجاه الشمال لتعبر صوب أرمينيا والقوقاز، أو تلك المنطلقة باتجاه الجنوب عابرة سهول فلسطين إلى مصر، أو مرتفعات القدس باتجاه العربية فاليمن وعمان، ومنها إلى سواحل الهند والصين.

وقد حمتها فرق الخيالة المحليين ضد هجمات قبائل البدو في التنظيم العسكري الروماني. وتابعت افواج المردة مهمتها في الدفاع عنها إلى ما بعد زمن الأمويين. حيث خفت سيطرة الخلافة عليها مع انتقالها إلى بغداد. ومن ثم تقدم الفاطميون صوب مصر وتوسعوا باتجاهها.

ثم جاءتها الحملات الصليبية التي جعلت منها مجددا قاعدة تجارية مهمة بين الشرق والغرب. تحمي قوافلها القلاع والحصون الموزعة بين تلالها. ولكن هجمات المماليك عادت لاقتلاع كل مؤشرات

الحضارة فيها. ولم تخلو كليا من السكان الذين حافظوا على الحلم بارجاعها إلى عزها.

وفور تغيير القوى المسيطرة وانتهاء زمن المماليك، عادت لتزدهر مع المعنيين، وخاصة فخرالدين الثاني الكبير، الذي أعاد تنظيمها وتشجيع السكن فيها. ثم ما لبثت، ومع ناصيف النصار وضاهر العمر وتفاهمهما حول الحدود، أن عادت اليها حركة التجارة والانتاج. فازدهرت القرى، ومنها عين إبل، وساهمت في تحسين صورتها وتفاعل ابنائها وتنويع الانتاج فيها، وبناء العلاقات التجارية والحضارية. وعادت صور نفسها لتعرف عهدا جديدا من التعاون التجاري، المعتمد على البحر، بينها وبين مصر ودول أوروبا الناشئة. كما في البر مع القدس وطبريا ودمشق وما بعدها.

ولكن تطور وسائل النقل الحديثة وتنظيم السلطنة المركزي أعاد القبضة العثمانية على البلاد. ما أدخلها في صراعات الحرب العالمية الأولى ونتائجها السيئة. حيث ظهر فيها الجانب المظلم من سيطرة المدارس العسكرية التي نشّأت ضباطا مارسوا الظلم ضد الرعية. فكان التجنيد الاجباري، والسفر برلك، ومصادرة الخيرات لدعم الجبهات. ما نشر الفقر والجوع وتسبب بالهجرة والموت لكثير من اللبنانيين.

وفي نهاية هذه الحرب التي أدت إلى انكسار السلطنة وانسحاب جيوشها إلى تركيا. بدأت مرحلة انتقالية جديدة لرسم حدود النفوذ بين فرنسا وانكلترا، اللتان تسلمتا ادارة المناطق الواقعة بين تركيا وايران من الشمال والشرق، والعربية ومصر من الجنوب. وكانت سوريا ولبنان من حصة فرنسا، بينما فلسطين وشرق الأردن والعراق من حصة انكلترا.

وقام بعض من حاول استغلال تغيّر الدول وقد شعروا بأن هناك دفع من قبل الحلفاء، الذين خسروا في تلك الحرب أكثر من مليوني جندي على مختلف الجبهات، باتجاه اعطاء البلاد نوعا من الاستقلال بعد تدريب السكان على الادارة الذاتية. فقامت الحركات المختلفة؛ من الحالمين بتغيير الخلافة من الأتراك إلى العرب، إلى

المطالبين بامارة تسيطر على الشريط الساحلي من تركيا وحتى اليمن تحت شعار الدولة العربية. ومن الشعوب التي تأملت بالاستقلال، وخاصة اللبنانيين الذي لم يفقدوه بشكل كامل مرة منذ فجر التاريخ، ولو دفعوا ضريبة حريتهم لتلك للقوى المسيطرة؛ أموالا ونفوذ، شريطة أن يكون لهم حقهم في المبادرة وحماية تجارتهم.

وقد كانت مدارس التتريك، ومحاولة السلطنة في نهاية عهدها فرض اللغة التركية في التعامل والتعليم، واقتباس الأفكار القومية الأوروبية لمزج مواطني السلطنة في بوتقة واحدة، أثرت على السكان في ردات فعل ثقافية شددت على التمسك بالغة العربية. وبالتالي أدت إلى نشوء الحركة الثقافية العربية، التي كان روادها من اللبنانيين خاصة. والتي تطورت نحو الحركة القومية العربية. فقامت "العربية الفتاة" تقليدا لحركة "تركية الفتاة".

من هنا فقد دعم المثقفون العرب فور خسارة تركيا الحرب فكرة قيام دولة عربية. وما ساعد على ذلك قيام الثورة العربية في الحجاز بقيادة الشريف حسين، الذي كان تفاهم مع الأنكليز على دعمه للانتفاض ضد التدخل العثماني في الحجاز، ووضع اليد على المقدسات الاسلامية في مكة والمدينة.

ولكن في لبنان كان الوضع يختلف فقد كان اللبنانيون نعموا بنوع من الاستقلال في ظل السيطرة العثمانية خلال الامارتين المعنية والشهابية، ومن ثم بعد مشاكل ١٨٦٠ بما سمي نظام المتصرفية الذي رعته الدول العظمى يومها، واعترفت به السلطنة. ولكن أحداث الحرب العالمية الأولى كانت أوقفت العمل فيه، في ظل النظام العسكري والاحكام العرفية التي وضعها جمال باشا السفاح. وهو أحد الباشوات الثلاثة الذين تحكموا بالسلطنة خلال الحرب وهم: طلعة باشا الصدر الأعظم، وأنور باشا وزير الحربية، وجمال باشا وزير البحرية. وكان من نتائج أحكام جمال باشا؛ المجاعة التي وقعت في لبنان وراح من جرائها حوالي ٢٠٠ ألف شخص. وقد شكلوا ثلث سكان المتصرفية. بينما دفعت بالثلث الآخر إلى الهجرة

القسرية صوب الأمريكيتين. ولم يبقَ سوى الثلث الثالث الذي أكمل النضال في سبيل البقاء واعادة اعمار البلاد.

أما في الجنوب حيث كان المتاولة (الشيعة) يعيشون في ظل احكام أهل السنة ومن دون حقوق معترفة لهم من قبل الدولة العلية. فقد كان زعماؤهم يميلون إلى التخلص من النير العثماني. ولكن الفئة المثقفة كانت تاثرت قليلا بالفكرة العربية. بينما القيادة الدينية والتي انحسرت بالسياد الذين كانوا يحاولون دوما التأكيد على اتصالهم الدموي بالنسب النبوي الشريف، والذي يخولهم استيفاء الخمس من أموال الرعية. فقد كان ارتباطهم المعنوي بالجزيرة العربية. ما جعلهم يفضلون نوعا من الخلافة، ولكن التي تنتسب لآل البيت، خاصة الامام علي. وقد كان نسب الشريف حسين يتصل بشكل أو بآخر إلى أحد أبناء المذكور. ما أعطاهم مزيدا من التشديد على الولاء للشريف حسين أو أحد أبنائه.

من هنا، ويوم قام العروبيون، الذين استغلوا دخول الانكليز إلى دمشق، برفع العلم العربي، والدعوة إلى حكم الأمير فيصل، والذي دخل بعد قوات النبي إلى المدينة. عم نوع من التفاؤل لدى الكثيرين كل بحسب تطلعاته.

ولكن لا يجب أن ننسى بأن السلطنة التي حكمت الشرق مدة اربعمئة سنة، لم تكن لتتخلى بسهولة عن "حقها" بالسيطرة على هذه البلاد. وبالطبع كانت تسعى إلى العودة لبسط نفوذها، معتقدة بأن هذه القوى الجديدة لن تستطيع الاستمرار بالسيطرة لفترة طويلة، كونها لا تعرف كيف تلعب على مشاعر الناس، ولن تقبل شعوبها أو دساتيرها بفرض احتلالها لهذه البلاد بالقوة وبدون وجه حق، خاصة وقد خسرت الكثير من ابنائها في الحرب. ولا تريد أن يفرض عليها قتال طويل الأمد تتعرض خلاله لفقدان المزيد.

وقد كان الضباط أمثال الباشوات الثلاثة وأعوانهم، قد قاموا بالكثير من التغييرات الديموغرافية بالقوة لفرض سيطرتهم على أماكن استراتيجية خافوا من أن يخذلهم فيها سكانها الأصليون. وهكذا كانت مجازر الأرمن سنة ١٩١٥ التي غيرت الواقع الديموغرافي

في كيليكيا وجنوب غرب تركيا. وأيضا ما تعرض له السريان وبقية الأقليات المسيحية في ديار بكر جنوب شرق تركيا. هذا التصرف لفرض نوع السكان بالقوة، كان يعرفه جيدا إذا تلامذة انور باشا وجمال باشا وطلعت باشا، وهو بالنسبة لهم تخطيط عسكري يؤمن الانتصار واستمرارية السلطة، بدون أن يكون لحق الشعوب ومدة سكنها وما أعطته للبلاد من تحسين أو تطور اي دور أو جميل. من هنا فأعمال الترهيب وفرض الخوات لتهجير الناس، لم تكن غريبة عن تصرفات من عمل تحت قيادة هذه الفئة من الضباط الأتراك. ولذا فإن تهجير أغلب القرى والمزارع في جنوب لبنان الذي قامت به عصابات "يوسف العظمة" تلميذ ومساعد انور باشا ليست غريبة. وأوامره المباشرة بالهجوم على عين إبل في الخامس من ايار ١٩٢٠ وتهجيرها كما حدث مع أرمن كيليكيا أو مسيحيي ديار بكر ليست عملا يقلق ضمير مثل هؤلاء القادة.

ويهمنا أن يطلع القاريء على المعلومات التي نضعها أمامه والتي سنحاول أن ندعمها بالوثائق المتاحة في ارشيف المخابرات العثمانية والأنكليزية والفرنسية ويوميات وتقارير المسؤولين الفرنسيين في جنوب لبنان. بالاضافة إلى تقارير الكولونيل نيجر حول محادثاته مع أركان جبل عامل قبل وبعد الحادثة. وقرارات الاتهام التي وجهت إلى من حوكموا على جرائم الارهاب التي حصلت في عين إبل وغيرها من القرى المسيحية في جنوب لبنان.

ولا يهمنا كثيرا محاولة بعض الذين يدعون البحث العلمي والذين يحاولون وضع المسؤولية على الفرنسيين، كونه لم يكن من مصلحتهم حصول اي مشكل في منطقة عملهم طالما كان الأمير فيصل قد قبل بالاتفاق مع كليمنصوه بالحكم تحت اشراف فرنسا إثر اجتماعه به في كانون الثاني ١٩٢٠.

أما بالنسبة لمحاولة الانكليز ضم جبل عامل لفلسطين لتنفيذ ما كانت طالبت به الوكالة اليهودية، كما قيل، فإننا نشكك بدقته لأننا لم نرى حتى بعد الحرب العالمية الثانية وقدوم دفعات كثيرة من المهاجرين اليهود من أوروبا الشرقية ومن ثم قيام دولة اسرائيل، تركيزا على

اقامة المستوطنات اليهودية في الاماكن البعيدة عن السهول الغنية إلا لحاجات عسكرية، وبعد السيطرة على البلاد. والمعروف بأن الجليل كان أقل اكتظاظا بالسكان من جنوب لبنان. كما نعتقد بأن سكان المنطقة خاصة اللبنانيين الشيعة لهم تاريخ بالدفاع عن هذه الأرض التي شكلت دوما حدود لبنان الجنوبية. ولا يمكن أن يتخلوا عنها بسهولة ولذا فقد يكونون مصدر قلق للدولة الحديثة أكثر من أهمية الماء في نهر اللبطاني التي قيل بأن أطماع الوكالة كانت بالوصول إليها. ومن جهة ثانية لم يتضمن الجنوب اللبناني اي من المواقع الأثرية اليهودية كما هي الحال في شمال فلسطين والتي تبدأ من برعم وميرون جنوبا بحسب بعض الباحثين ومنهم ارنست رونان.

الوضع العام في المنطقة
قبل الخامس من ايار ١٩٢٠

منذ مئة عام خلت وقبل أن يرسم لبنان الكبير الذي نعرفه اليوم جرت في المنطقة حركات وأحداث حاولت تغيير حلم اللبنانيين بوطن حر مستقل فاعتقد البعض بأن تبديل السلطنة العثمانية بمملكة عربية قد يكون الحل الأمثل بينما كان آخرون يحلمون بضم الجنوب اللبناني حتى الليطاني إلى الحماية الانكليزية بدل الفرنسية ليصبح بالتالي جزءً من فلسطين. ولكن اصرار اللبنانيين على وحدة الارض الجغرافية والتاريخية حقق الحلم باعادة ضم الاجزاء المسلوخة إلى المتصرفية لتشكل دولة لبنان الكبير.

كانت عين إبل في تلك الفترة واحدة من القرى النشيطة والمنتجة التي زينت "بلاد البشارة" وجنوب لبنان وقد شكلت مركزا لقوافل التجارة بين حوران وصور ايام الدولة العثمانية. ومع بداية الحرب العالمية الأولى تأثرت كغيرها من سياسة التجنيد الاجباري الذي فرضه العثمانيون فهاجر الكثير من أهاليها إلى الأمريكيتين وخسرت عددا كبيرا من أبنائها الذين فرض عليهم التجنيد. وبنفس الوقت تقلصت سبل العيش فتوقفت التجارة والانتاج الزراعي بسبب الحرب وغياب اليد العاملة ومطالب العثمانيين المتشددة. وما أن بدأ انحسار الحرب وذيولها، وقبل أن تستعيد البلدة أنفاسها، كانت غيوم جديدة لأحداث مصيرية تتلبد في الأفق.

كان اللبنانيون أول من أدخل الطباعة إلى الشرق منذ ١٥٨٥ في مطبعة دير مار انطونيوس قزحيا والتي كانت تطبع بالحرف السرياني ومن ثم مطبعة دير مار يوحنا الخنشارة (١٧٣٤) التي كانت تطبع بالحرف العربي. وبعد الانفتاح الماروني على المحيط، الذي أقرّه المجمع اللبناني المنعقد في دير سيدة اللويزة سنة ١٧٣٦ والذي أوصى باعتماد اللغة العربية وفرض التعليم الالزامي للصغار صبيانا وبنات، بدأت الحركة الثقافية تتزايد وتضيء أكثر فاكثر على التراث العربي. ويوم حاول العثمانيون فرض التتريك على البلاد شكل المثقفون اللبنانيون نواة مقاومة هذه العملية ورفعوا لواء العروبة وتغنوا بها.

بدأت الثورة العربية ضد الاتراك في الحجاز بمساندة الانكليز وقد قام "الشريف حسين" ورجاله بعمليات محدودة ساهمت بتقليص انتشار القوات العثمانية هناك ومن ثم انسحابها. وقد شاركت قوة بقيادة الامير "فيصل" ابن الشريف حسين في عملية احتلال العقبة جنوب الاردن. وبعد خسائر الجيش العثماني المتتالية في فلسطين أمام قوات الجنرال "اللنبي" وانسحابهم السريع إلى شمال سوريا سارع الامير "فيصل" إلى دخول دمشق.

ولكن وقبل المضي في مزيد من التفاصيل سنلقي الضوء قليلا على جبل عامل، الذي كان دوما معقلا للخيالة اللبنانية المحلية، كغيره من المناطق الجبلية اللبنانية، منذ التنظيم الروماني في الدفاع عن المدن الساحلية ضد غزوات البدو، وكان أثبت قدرته على الحكم الذاتي وحماية السكان والارض بعد انحسار سلطة المعنيين وقيام الشيخ "ضاهر العمر" بالسيطرة على الجليل من طبريا إلى عكا ومن ثم محاولته السيطرة على جنوب لبنان. ولكن الشيخ "ناصيف النصار" وفرسانه كانوا له بالمرصاد وأعادوا رسم حدود لبنان الجنوبية في ثلاث مواقع متتالية وهي: موقعة طربيخا، ومارون، والبصة. ومن ثم بعد التفاهم مع "ضاهر العمر" وعند محاولة والي الشام "عثمان باشا"، بأمر من الاستانة، الهجوم على جنوب لبنان من الجهة الشرقية، أي منطقة الحولة، قام "ناصيف" وفرسانه بالقضاء على حملة الباشا واعادة رسم حدود لبنان الجنوبية الشرقية كما هي اليوم. وقد أحب الاهالي في عين إبل الشيخ "ناصيف"

وحاربوا ضمن قواته[١] ويظهر هذا التقدير للشيخ "ناصيف" ومحبته من قبل الأهالي بافتخارهم به لدرجة تسمية أولادهم باسمه ما يبدو جليا في سلسلة العائلات العينبلية حيث يظهر اسم "ناصيف" في جيل واحد وبأكثر من عائلة. فقد سمى بركات ابن مخايل خليل بن جريس دياب ابنه الثاني ناصيف وسمى يوسف بن جريس بن عبدالله خريش ابنه الثالث ايضا ناصيف كما سمى جريس بن حنا عتمه ابنه الثاني ناصيف وهي ظاهرة غريبة إذا ما قيست بالتسميات العادية المتبعة والتي عادة ما يتكرر فيها أسماء الاقارب والجدود دون غيرهم ضمن العائلة وأغلب الأسماء المعتمدة في العائلات العينبلية تعود لقديسين.

أما بعد "ناصيف" واحتلال "الجزار" لجنوب لبنان وفرضه السخرة أو "السرولي" (أي التجنيد الاجباري) فقد كثر "الطياحة" وساد الظلم والاستبداد. وما أن مات "الجزار" حتى عادت شيئا فشيئا السلطة المحلية مع "بشير الثاني" ووهرته لتضبط الأمور وتحسن الأوضاع فرفعت السخرة عن المواطنين. ولم تظهر أزمة حقيقية في المنطقة أثناء الهجوم المصري المدعوم من قبل "بشير الثاني" والذي وصل إلى كيليكيا. ولكن نهاية هذه الحرب أدت الى عودة سلطة الزعماء المحليين، حيث التحق "حمد البيك" بصفوف العثمانيين وناوش فلول المصريين. ولم تحدث مشكلات حقيقية في الحرب الأهلية في ١٨٦٠ في هذه المنطقة كما حصل في حاصبيا مثلا. ولكن حادثا فرديا بين رعاة ونواطير في ١٨٦٥ أدى الى هجمة من بنت جبيل جعلت الأهالي يهربون تاركين البلدة عرضة لبعض النهب. وبعد مراجعات وشكاوى قام الأتراك بنفي عشرين من زعماء بنت جبيل الى قلعة الحصن في بلاد العلويين وتغريمهم ببعض التعويضات. وقد ظهرت فيما بعد هذه الحادثة خاصة، وكانت الأولى من نوعها، مجموعات من "القبضايات" أخذت "تغزو" الجوار وترد على التعدي بالتعدي فزاع سيطها في المنطقة بأثرها. وفي ١٨٧٣ عندما حدث أن أحد هؤلاء خطف فتاة من حداثا (وتزوجها وسكنا في بيروت فيما بعد) أشاع أهالي هذه البلدة أنه قتل قتيل وتنادوا الى أخذ الثأر. فهوجم الرعاة والفلاحون ووصلت

[١] وقد ركز (دولاكروا) وهو أحد الرحالة الفرنسيين في حديثه عن هذه المرحلة بأن المسيحيين كانوا يحاربون مع قوات "ناصيف النصار"

أخبار الهجوم الى البلدة. فحاول البعض الهرب. ولكن الأب "ساروفيم حوا"، الذي كان يخدم في الدير يومها، أوقفهم ومنعهم من الهرب قائلا أنه سيرد الهجوم وهو مستعد لقتل كل من يدخل البلدة "بالطبنجة" التي يمتلكها. وهكذا فقد توقف الهلع ووقف الأهالي وقفة شجاعة ردت الهجوم قبل مداخل البلدة، ولم يحدث أي قتل يومها. وهنا نلاحظ في المرتين أن الخوف مما جرى في الجبل قد قلل من معنويات الأهالي خوفا من المذابح كما حدث هناك وهذه المناوشات كلها سوف تؤثر فيما بعد على تصرفات البلدة في أزمة ١٩٢٠ ومواقفها تجاهها.

بالعودة إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى، فبعد الانسحاب التركي إلى شمال سوريا وتوقيع اتفاقية "مدروس" ٣٠ تشرين أول ١٩١٨ التي قبلت فيها السلطنة بوقف النار وانسحاب الألمان والنمساويين، ومن ثم دخول قوات الحلفاء إلى نقاط محددة من اسطنبول، اندفعت القوات الفرنسية لتثبت أقدامها في جنوب تركيا وخاصة كيليكيا. وكان الهم الأكبر لقوات الحلفاء السيطرة على الممرات المائية وسواحل البحر المتوسط والبحر الأسود بينما بقي للجيش العثماني قوات كبيرة تمركزت في انقرة والجبهة الشرقية والداخل.

كانت المواجهة في جنوب تركيا تتطلب الكثير من القوات الفرنسية ولذا لم يكن في منطقة صور حتى حزيران ١٩٢٠ أي وحدة قتالية فرنسية ولو لضبط الأمن. من هنا خطورة الموقف بالنسبة للسكان العزل من السلاح في حال حدوث أي فوضى. وبينما كان "مصطفى كمال أتاتورك"، الذي عين فور توقيع وقف النار قائدا للقوات العثمانية في جنوب تركيا، يوزع السلاح على المدنيين لتامين عملية انسحاب الجيش العثماني، كانت بقايا المخابرات العثمانية (تشكيلات محسوسة) تحاول الهاء القوات الفرنسية باختلاق مشاكل في سوريا. وقد كان هذا الجهاز عمل في كثير من الأماكن داخل الدول المحيطة بالسلطنة عدى عن جمع المعلومات. مثالا على ذلك ارسال مجموعة إلى اسبانيا للعمل مع المخابرات الألمانية على تنظيم عمليات في المغرب ضد القوات الفرنسية لمنعها من ارسال المزيد من الدعم إلى جبهات القتال. كما ارسلت مجموعات إلى العديد من الدول "المعادية" للسلطنة أو التي تقف على الحياد مثل ايران وافغانستان

والعربية ومصر والسودان والهند لتشجيع السكان المحليين على العصيان والتمرد وخلق المشكلات الأمنية فيها. وقد كلف "عمر ناسي" بخلق وحدات "مقاومة" في ايران كما أرسل "سليمان شفيق" و"حسين رؤوف اوربي" و"محمد عبيدالله" إلى افغانستان من أجل خلق حالة تمرد في الهند. ومن المعروف أن هذه المخابرات كانت وراء تشكيل مجموعة متطوعين من دروز جبل لبنان بلغ عديدها ١١٠ رجال بقيادة الأمير "شكيب ارسلان"[٢] للعمل مع قوات حملة الحجاز. ومن الجدير بالذكر أن "عمر فخر الدين باشا" تمكن من الدفاع عن المدينة المنورة ضد قوات "الشريف حسين" حتى كانون الثاني ١٩١٩ أي بعد التوقيع على وقف النار بين السلطنة والحلفاء وبالرغم من الحصار الذي دام ٣٠ شهرا. ويعتبر أهم انجاز للمخابرات العثمانية ما جرى في ليبيا فلم تقتصر العمليات على خلق المشاكل للأيطاليين واثارة القلاقل داخل ليبيا ولكن تمكن ضابط المخابرات "نوري كيليجيل" باشا والماجور "جعفر العسكري" من التفاهم مع "سيد أحمد الشريف السنوسي" على تشكيل فرق عسكرية من القبائل الليبية لمحاولة خلق تمرد في مصر[٣]. وقد قامت هذه الفرق بعمليات احتلال لمناطق على الحدود الليبية المصرية ما أدى إلى بعض حالات الفرار المحدودة من الجيش المصري. وفي العراق قام "سليمان العسكري" بقيادة مجموعة من المتطوعين ألبت بعض رجال القبائل ضد القوات البريطانية التي كانت تتألف من "قوات الاستطلاع الهندية" وصل عديدها إلى نحو ١٧٠٠٠ مقاتل من عرب وأكراد. إذاً كان للمخابرات العثمانية خبرة كبيرة في خلق أنواع من الفوضى أو التمرد داخل الدول "العدوة" لاشغال قوات هذه الدول بضبط الأمن الداخلي ما يؤثر على عملياتها العسكرية على الحدود. فكيف إذا كانت البلاد التي لم تخرج عن السيطرة العثمانية منذ مئات السنين ولهم فيها من الخبرة والصداقات ما يكفي لقلب الأوضاع راسا على عقب[٤]. من هنا وبالرغم من التوقيع على وقف النار بين السلطنة والحلفاء كان الجيش العثماني لا يزال يحلم باستعادة السلطة

[٢] ويقال ايضا بأنه كان شارك مع بعض المتطوعين في حملة ليبيا الأولى إلى جانب أنور باشا وأتاتورك قبل الحرب العالمية الأولى

[٣] وقد يكون هذا ما يدفع أردوغان اليوم للتوسع باتجاه ليبيا

[٤] بالاضافة إلى الجاليات التركمانية والذين يعتبرون جزء من الشعب التركي وقد زاقوا بعض التمييز تحت سلطة الأتراك

على البلاد التي خسرها، وخاصة سوريا التي تعتبر الأقرب. وقد تمكن "أتاتورك" فيما بعد من القيام بما سمي "حرب التحرير" بالفعل والتي بقيت مستمرة حتى اعاد السيطرة على كامل ما يعرف بتركيا اليوم. ومن ثم فلم يتم توقيع معاهدة الصلح النهائية قبل ٢٤ تموز ١٩٢٣.

بعد هذه الوقائع التاريخية يمكننا فهم الوضع في جنوب لبنان بشكل افضل وأوضح وبالتالي عدم التسرع في توزيع الاتهامات يمنة ويسرى بدون محاولة التحقق من الاسباب والنتائج التي ترتبت عليها وبذلك قد نجد بعض الأجوبة على سؤالنا: لماذا هوجمت عين إبل ووقعت فيها تلك المجذرة الرهيبة؟

فيصل في سوريا

كان الأمير فيصل قد عرض على "جمال باشا" في كانون الأول من سنة ١٩١٧ في دمشق انشقاقه عن الحلفاء وانضمامه إلى "اخوانه" المسلمين في السلطنة العثمانية شرط أن يعطى ادارة الولايات في سوريا والموصل. والمعروف بأن "جمال باشا" على عكس "أتاتورك" من المسلمين المتعصبين وقد كان شارك بعمليات الابادة التي جرت بديار بكر وغيرها. ولم يمر العرض بسبب الخلاف على القرار بين الباشاوات الثلاث "طلعة باشا" الصدر الأعظم ووزير الداخلية، و"جمال باشا" وزير البحرية، و"أنفر باشا" (أو "أنور باشا" كما يسميه العرب) وزير الحربية، وكانوا هم من يدير السلطنة فعليا. فعاد "فيصل" إلى أحضان بريطانيا وحاول "لورنس" تجميل خطوته هذه بأن اعتبرها مناورة من قبل "فيصل" لتشتيت خطط العثمانيين. ولكن في ربيع ١٩١٨ بدأت "عملية مايكل" الألمانية (٢١ آذار ١٩١٨) على الجبهة الغربية وكان مخطط لها أن تقضي بسرعة على دفاعات الحلفاء هناك بسبب الفرق الالمانية العديدة التي سحبت من الجبهة الروسية ودفع بها إلى الجبهة الفرنسية، ما كان سيؤدي إلى خسارة الحلفاء للحرب قبل وصول القوات الأميركية إلى اوروبا والتي كان مقررا في ايار من العام نفسه. يقول بعض المؤرخين بأن الأمير "فيصل" وعندما عرف بهذه التطورات اتصل مجددا ب"جمال باشا" عارضا خدماته التي رفضها الأخير هذه المرة جملة وتفصيلا كونه كان واثقا من النصر.

عندما احتلت القوات البريطانية بقيادة الجنرال "اللنبي" دمشق في ٣٠ ايلول ١٩١٨ سارع الأمير "فيصل" للدخول اليها في الثالث من تشرين أول ١٩١٨. وبدأ على الفور بوضع يده على الحكم فعين

"علي رضا باشا الركابي[٥]" حاكم عسكري على المدينة وكان أول عمل قام به "الركابي" اعتقال الأمير "محمد سعيد الجزائري" حفيد المناضل الأمير "عبد القادر الجزائري" والذي كان أعلن عن تشكيل حكومة عربية باسم "الشريف حسين بن علي قائد الثورة العربية" فور خروج الجيش العثماني ورفع العلم العربي. ومن ثم باشر رجال "الركابي" برفع العلم العربي وتشكيل ادارة محلية في كافة المدن السورية. وكان حلم الأمير "فيصل" ومن حوله اعلان "مملكة عربية" تمتد من سوريا إلى اليمن باستثناء الحجاز التي يعود الحكم فيها إلى والده الشريف حسين ولم يدخل ضمنها العراق.

ولكن فرنسا وبريطانيا كان لهما مشاريع مختلفة فهما لم تنتهيا بعد من موضوع السلطنة ومستقبلها. وكانتا قد اتفقتا بما عرف فيما بعد "باتفاق سايكس- بيكو" على توزيع النفوذ بينهما في البلاد التي ستنسحب منها السلطنة. فتشرف فرنسا على لبنان وسوريا حتى كليكيا بينما تشرف بريطانيا على فلسطين وشرق الأردن والعراق. ولا يعني هذا ابدا أن "فيصل" لن يستطيع أن يحكم البلاد ولكنه سيحكمها تحت اشراف فرنسا وبريطانيا. وذلك تجنبا لاعادة تكرار التجربة العثمانية في الادارة الفاشلة والتي قامت على الفساد والرشوة والاستبداد، ما يؤدي إلى تأخر البلاد بدل تقدمها.

كانت النظرة الأوروبية للمصالح، والتي نفهمها أكثر اليوم، تقوم على تقدم البلاد وتطور السكان فيها لزيادة قدرتهم الانتاجية وبالتالي الشرائية، والتي تؤدي إلى المزيد من استهلاك الصناعات الأوروبية. ما ينتج عنه عدم الحاجة لفرض الأمور بالقوة. ومن جهة ثانية كانت المجازر التي قامت بها السلطنة مؤخرا، والتنظيف العرقي الذي مورس في جنوب تركيا ضد الاقليات السريانية والآشورية والأرمنية واليونانية، اضافة إلى المجاعة التي فرضها "جمال باشا"

[٥] أحد الضباط العثمانيين سرح من الجيش العثماني لمعارضته دخول السلطنة الحرب عينه جمال باشا رئيسا لبلدية دمشق ١٩١٥ وعينه فيصل حاكما عسكريا فور دخوله دمشق في ٣ تشرين أول ١٩١٨ ثم رئيسا للوزراء فيها في٩ آذار ١٩٢٠ وفي ٣ أيار ١٩٢٠ قدم استقالته لاعتراضه على مواجهة الفرنسيين لعدم التكافؤ ورفضه لتسليح الأهالي. واصبح فيما بعد رئيس حكومة شرق الأردن التي تشكلت في ١٠آذار ١٩٢٢

على جبل لبنان والتي أدت إلى مقتل أكثر من ٢٠٠ ألف من سكان المتصرفية، تدعو دول الحلفاء إلى العمل على التخفيف من التمييز بين الشعوب. وذلك باعطاء المجموعات الحضارية حقوقها بالتمثيل في الادارة والحكم. وهذا يؤدي بالطبع إلى زيادة الاستقرار في عالم بدأ يصبح أكثر انفتاحا بواسطة المواصلات الحديثة يومها. ولكن العقلية الرجعية التي سادت مع العثمانيين، وخاصة في بلادنا، كانت تعتقد بأن ادارة البلاد هي امتلاك القوة والسيطرة على الغير والتفرد بالثروة.

من هنا لم يفهم، أو لم يرد أن يفهم، من كان في دائرة القرار عند الأمير "فيصل"، أهمية التعاون مع القوى الكبرى، وتسرّعت "النخبة" المحيطة بالأمير في استغلال نصر الحلفاء على العثمانيين ورفع نيرهم عن البلاد. وقد يكون هناك مندسون لخلق البلبلة والقلاقل في المناطق التي تركتها القوات العثمانية[٦]. وبدل أن تتعاون هذه النخبة المحيطة بالأمير "فيصل" مع قوات "الحلفاء"، التي لم تكن قد انتهت بعد من حربها مع دول "المركز"، تصرفت وكأنها هي من ربح الحرب، وقد حانت ساعة التمتع بالنصر. زد على ذلك أن من قابلهم من الفرنسيين والبريطانيين كانوا ضباطا عسكريي التفكير. فكان استعجال التنفيذ، بدون تشاور لا مع البريطانيين ولا مع الفرنسيين، بدا وكأنه محاولة لفرض الأمر الواقع. فحدث الصدام وفشلت التجربة التي عادت ونجحت مثلا في شرق الأردن مع الملك "عبدالله". ونجحت أيضا (ربما نسبيا) في لبنان الذي، وبعد حادثة عين إبل المؤلمة ونتائجها، تنظمت فيه السلطة والدستور وشيئا فشيئا أخذت الأمور تسير بشكل طبيعي. وبدأت البلاد تستقر والمؤسسات تبنى والسلطة تنتقل شيئا فشيئا إلى الوطنيين. وقد أنشأت هذه الدول الكبرى عصبة الأمم وأطلقتها في مؤتمر السلام في باريس ووضع لها أهدافا، منها منع الحروب وتدريب الشعوب في الدول الناشئة على الحكم الذاتي. ومن هنا كان تفويض فرنسا وأنكلترا من قبل

[٦] كان هناك الكثير من الضباط والجنود الذين خدموا بالجيش التركي ومنهم من تبوأ مناصب مهمة وتدرب مع الألمان نذكر من المنظورين فقط يوسف العظمة الذي تسلم وزارة الحربية وهو من قرر مواجهة الفرنسيين في ميسلون ونوري السعيد وجعفر العسكري وهم من الضباط الأتراك فما كان تأثيرهم وأمثالهم في فشل التجربة العربية وفي ردود الفعل العنيفة التي أدت إلى ذلك؟

عصبة الأمم هذه بالانتداب على سوريا ولبنان وفلسطين والعراق وشرق الأردن وتعليم المواطنين على ادارة البلاد فيها.

أكثر ما أفشل حكم الأمير "فيصل" في الشام هو الضباط العرب[٧] من بقايا الجيش العثماني وبقايا المنظمات السياسية التي كانت قد انشئت في أواخر ايام العثمانيين وقد التحق هؤلاء بقوات الأمير تحت مسمى الثورة العربية وقادوا عملية تنصيبه "ملكا على بلاد العرب" بدون التنسيق مع البريطانيين أو الفرنسيين. وهم من شجّع، وعلى الطريقة العثمانية، فرض توقيع المطالب أثناء جولة لجنة "كينغ – كرين" التي كان أرسلها الأمريكيون بناء على مشروع الرئيس "ولسون" لاستفتاء الشعوب في تقرير مصيرها. وقد كان طرحه أثناء مؤتمر باريس. فإذا كان هؤلاء الضباط قد نسّقوا مع الأتراك عملية افشال التقارب بين العرب والحلفاء، منتظرين أن يستعيد "أتاتورك" وبقايا الجيش التركي سيطرتهم على الأرض فتكون سوريا جاهزة للانقلاب على الحلفاء، فهي خيانة كبرى لكل الشعوب التي كانت تتمنى انتهاء السيطرة العثمانية. وإذا كانت المدارس الحربية العثمانية والتدريب وغسل الأدمغة قد فعلت فعلها في العقول فولدت نوعا من الحقد على الحلفاء، فيمكن تفهمه. وقد خدم هؤلاء الضباط في جبهات القتال مع الجيش الألماني والنمساوي، ولهم من الخبرة في تقدير قوة العدو وتأثير ولاء الأهالي على الجيش المقاتل. لذا وإذا كانوا يكنون بالفعل حقدا شخصيا على الحلفاء الذين حاربوهم في كل الجبهات، فلا بد أن يكون تعاملهم معهم سلبيا لا بل معاديا. من هنا كان فشل "فيصل" في سوريا. فقد كان البريطانيون انسحبوا من دمشق بطلب من فرنسا فور التوقيع على اتفاقية وقف النار ونصحوا الأمير "فيصل" بالتفاوض مع الفرنسيين. وأنزل الفرنسيون قوات جديدة على الساحل توجهت لاكمال السيطرة على شمال سوريا حتى كيليكيا من بقايا القوات العثمانية. ولم يكن بنيتهم محاربة "فيصل" أو تحجيمه. لا بل، وبعد أن تم الاتفاق معه على تنسيق الجهود مع الفرنسيين، اعتقدوا بأن الأمور سائرة إلى التحسن. ولكن رفض المتشددين، وعلى راسهم "يوسف العظمة[٨]"، لمهادنة الفرنسيين،

[٧] الضباط العرب والتركمان ايضا

[٨] وهو تركماني سوري ولد في دمشق ومن كبار الضباط العثمانيين سابقا كان قائد فرقة المشاة ٢٥ وفيما بعد مساعد وزير الدفاع في السلطنة انفر باشا وبقي

إدى إلى التراجع عن ما تم الاتفاق عليه. وما كان من رئيس الوزراء "الركابي" يومها إلا تقديم استقالته في ٣ ايار ١٩٢٠ أي قبل يومين من الهجوم على عين إبل. وكانت أسباب تقديمه الاستقالة "بأننا لا نقدر على مواجهة الفرنسيين ويجب القبول بشروطهم". ولكن وزير الحرب "يوسف العظمة" فرض رأيه وبدأ التحضير للمواجهة.

يمارس خدمته في هذا الجيش حتى تشرين أول ١٩١٨ عند توقيع اتفاق وقف النار حيث عاد إلى دمشق وتقرب من الأمير فيصل. وتاريخ أنور باشا معروف فقد حكم بالخيانة عند انتهاء الحرب فهرب إلى المانيا وعمل كمبعوث إلى روسيا ونجح في مبادرته ولكنه سرعان ما التجأ إلى روسيا ليعمل مع البلاشفة ومن ثم انقلب عليهم في بخارى والتحق بالمتمردين إلى أن قتل هناك.

الأمير فيصل

مجزرة عين إبل

كانت عين إبل واحدة من أهم القرى المسيحية جنوب الليطاني من حيث عدد السكان[٩] والانتاجية والأبنية والمدارس والتنظيم في كل جوانب الحياة. وبالرغم من ذيول الحرب العالمية الأولى وتناقص عدد السكان والقدرة الانتاجية فيها، إلا أنها كانت لا تزال افضل من غيرها من القرى. وقد رفع النير العثماني. فالارض[١٠] موجودة والخبرة الزراعية والرغبة والاندفاع لا تزال تشكل عناصر مهمة لدى السكان. وقد حلم هؤلاء بمستقبل زاهر خاصة إذا ما ضم جنوب لبنان إلى المتصرفية التي كانت مزدهرة قبل الحرب. وقد كان انشاء مطرانية في صور[١١] ووجود مطران فيها بشكل دائم أعطى الأهالي نوعا من الطمأنينة. فهو له موقعه في تنظيم الكنيسة واتصاله دائم بغبطة البطريرك وبالتالي بالسلطة. وعندما بدأ الحديث عن ضم الجنوب إلى لبنان أكثر جدية كان أهل عين إبل سباقين في التعبير عن تأييدهم لهذه الخطوة التي ستزيدهم ثقة بالمستقبل.

في مؤتمر باريس عرض الوفد اللبناني برئاسة البطريرك "الحويك" للمؤتمرين مطالب اللبنانيين والتي تتلخص بثلاث نقاط هي: توسيع حدود المتصرفية لتشمل المدن الساحلية صور وصيدا وبيروت

---

[٩] عدد السكان في عين إبل حسب تقرير الأم الرئيسة كليمنتين خياط رئيسة دير الراهبات في عين إبل والذي نشر في جريدة البشير وعدد من المجلات كان يبلغ عشية الهجوم عليها في ٥ ايار ١٩٢٠ حوالي خمسة آلاف نسمة وقد لا يكون دقيقا أو أنه تضمن أبناء عين إبل في بلاد الاغتراب كونه لم يكن قد مر زمن طويل على هجرتهم.

[١٠] تبلغ مساحة أراضي عين إبل حوالي ٢٠ ألف دونم وهي ثاني أكبر قرية بوسع الأراضي بعد عيناتا بلدة السياد الذين يتلقون الخمس من أبناء الطائفة الشيعية

[١١] انشئت مطرانية صور سنة ١٩٠٦

وطرابلس والمناطق المسلوخة عن لبنان وهي عكار والبقاع والجنوب. الاعتراف باستقلال لبنان الكامل. والانتداب الفرنسي على لبنان. بينما طالب الأمير "فيصل" بمملكة عربية تشمل سوريا ولبنان وفلسطين وقسم من شرق الأردن. وبناء على اقتراح الرئيس الأميركي، الذي عرض استفتاء السكان لمعرفة تطلعاتهم، تألفت لجنة أميركية خاصة عرفت بلجنة "كينغ – كرين" مهمتها القيام باستفتاء الشعوب في الأراضي التي انسحبت منها القوات العثمانية لمعرفة رايها في الحكم. من هنا قامت اللجنة بالاعلان عن رغبتها في زيارة المنطقة والاطلاع على رأي السكان. وطلب من المواطنين في القرى والمدن التعبير عن رأيهم بارسال عرائض ممهورة بامضاءات المسؤولين فيها وعرض رغبتها بالجهة التي تريد ان تحكمها. في جنوب لبنان كان يجب على العرائض أن تقول بشكل واضح نريد الانضمام إلى لبنان أو إلى المملكة العربية في سوريا أو حتى إلى فلسطين.

كان من البديهي أن يطالب الجنوبيون بكل فئاتهم بالانضمام إلى لبنان فالعلاقات بين سكانها واللبنانيين تاريخية وقد كان لها دوما ميزتها الخاصة. فأغلبية السكان الشيعة يسمونها جبل عامل ويعتبرونها منطقة مختلفة عن البلاد المحيطة بها في الجنوب أو الشرق وهي تبدأ في الجنوب عند انتهاء سهول الخصب (سهول عكا ومرج ابن عامر وحتى طبريا والحولة وما بعدها إلى الشرق سهول حوران) ويعتبر السكان الشيعة الذين يكثر تواجدهم فيها مختلفين عن المحيط السني في الجنوب والشرق وقد استمر تواجدهم في هذه المنطقة منذ فجر التاريخ. وقد ذكرت عاملة في سجلات تل العمارنة من ضمن الشعوب التي سكنت هذه المنطقة (وقد وردت تحت اسم عاملاتو)[١٢]. وتقف الحدود اللبنانية الحالية جنوبا كما حددها الفرنسيون والبريطانيون لاحقا عند خط القنن الطبيعي الذي يفصل مقالب المياه إلى شمال رأس الناقورة أو جنوبه وعليه آخر القرى الشيعية. ولم يخرج عنها سوى قريتي طربيخا وقدس وتقعان مباشرة بالقرب من هذا الخط بينما لا تقف القرى المسيحية عند اقرت وكفربرعم والجش بل تكمل كما القرى الدرزية حتى جبل الكرمل

[١٢] يقول ابن الأثير بأن عاملة من عماليق الواردة في العهد القديم منذ زمن النبي موسى

قرب حيفا. وتشكلت الحدود الشرقية ايضا من مقلب الماء باتجاه الساحل أو منخفض الحولة ولم يخرج عنها من القرى الشيعية سوى صالحة وهونين. من هنا نستطيع أن نفهم مواقع "ناصيف النصار" التي ذكرناها سابقا ودفاعه عن هذه الأرض إن بمواجهة "ضاهر العمر" أو "عثمان باشا". كما نفهم أيضا المشاكل مع "المير يوسف". فمرحلة "ناصيف النصار" تعطينا فكرة واضحة جدا عن وحدة هذه المنطقة من لبنان والتي تشبه المناطق الأخرى فيه، اي المنطقة الدرزية في الشوف أو المارونية في الشمال. ولا نريد هنا أن نقلل من قيمة بقية السكان ولكن التاريخ النضالي والمتميز لهذه الفئات من الشعب اللبناني عن المحيط، والتشابه في الصراعات، والقبول بنتائجها لدرجة التفاهم فيما بينها على طرق العيش، جعلتها تتأقلم ضمن حدود البلاد التي تحمي حرية الافراد كما المجموعات الحضارية[١٣]. من هنا كان من الطبيعي أن يطالب الشيعة في جبل عامل بالانضمام إلى لبنان.

كان تسرّع من فرض نفسه بقيادة ما سمي بالمملكة العربية وخطط للمواجهة التي اعتمدت مع الحلفاء لتبرير بقائهم في مناصبهم وتأليب السكان هو ما أفشل الأمير "فيصل" في الدرجة الأولى. أما بالنسبة للجنوبيين الشيعة فقد كان اظهار نسب الأمير "فيصل" إلى البيت الهاشمي صعودا حتى "علي بن أبي طالب" مغريا بعض الشيء[١٤]. فوجوده في سدة الحكم قد يكون مطمئنا لمستقبل الجماعة التي قاست خلال تاريخها الطويل ولم تهنأ وتستمر إلا في هذه المنطقة من لبنان التي ساندتها فيها الطبيعة بالقلة وصعوبة المسالك. ويعتقد بعض المؤرخين بأن "فيصل" قبل التعاون مع مشروع "حاييم وايزمن" في فلسطين (ملحق ربطا) المدعوم من بريطانيا فلماذا لا يقبل بلبنان الكبير وقد كان مجلس الادارة في جبل لبنان رحب بالدولة العربية.

كان معاونوا فيصل من بقايا الضباط العثمانيين المتشددين يحاولون دفع الأمور بسرعة نحو الصدام مع فرنسا، من جهة لوضع اسفين بين فرنسا وبريطانيا، ومن جهة أخرى قد يكون لحماية انفسهم من

[١٣] يقول الدتور يوسف الحوراني في تحديده للبنان "بأنه يبدأ حيث تقف مطامع الآخرين وتبدأ الطبيعة بمساندة حرية الأنسان" وهو كذلك من جنوبه إلى شماله
[١٤] خاصة للسياد الدين يحاولون دوما التشديد على نسبهم "الشريف"

التحقيقات التي قد تجري بعد استقرار الأوضاع وتحميل بعضهم مسؤوليات عن ما جرى أيام "جمال باشا" من ظلم للمدنيين وخاصة منع التموين عن جبل لبنان الذي ذهب ضحيته، كما قلنا، أكثر من ثلث السكان. ولذا كان تنظيم مجموعات مسلحة تحت مسمى "الجيش العربي" يسير بسرعة وبدون اي تدقيق. فقد التحق كل حامل سلاح أو قاطع طرق بالقوى الجديدة ليحمي نفسه من جهة ويستغل السلطة من جهة أخرى. وعين "محمود الفاعور" مثلا "أميرا" على قوات المنطقة الجنوبية وطلب منه تنظيم مجموعات مسلحة لتنفيذ ما يطلب من دمشق. وقام "الفاعور" وهو من سكان منطقة الحولة في شمال فلسطين القريبة جدا من الطيبة مقر "بيت الأسعد"، وبدل التفاوض مع زعماء المنطقة المعروفين أمثال "كامل بيك الأسعد" وريث البيت الوائلي، بالاستعانة ببعض العصاة أمثال "صادق حمزة" من دبعل قضاء صور و"أدهم خنجر" ابن المروانية في منطقة الزهراني وعينهما مسؤولين عن تنفيذ مطالب دمشق.

كانت الجلسة الافتتاحية لمؤتمر السلام قد بدات في ١٨ كانون الثاني ١٩١٩ في باريس وحضرها ٣٢ دولة وانتهت في ٢١ كانون الثاني باعلان نشؤ "عصبة الأمم". وفي أيار ١٩١٩ اجتمع ممثلو فرنسا وبريطانيا في "الكاي دورسي" في باريس واتفقوا على مناطق النفوذ في الشرق الأوسط حيث تعترف بريطانيا لفرنسا بالنفوذ على سوريا بينما تمارس بريطانيا نفوذها على فلسطين والموصل. وعندما علم مساعدو "فيصل" باقتراح الرئيس الأميركي "ويلسون" ارسال لجنة لاجراء نوع من الاستفتاء حول تقرير المصير سارعت جماعة "العربية الفتاة"[١٥] بالدعوة إلى انتخابات سريعة لما أسموه "المؤتمر السوري العام" وتم تعيين "هاشم الأتاسي" رئيسا له في حزيران ١٩١٩. وعندما وصلت لجنة "كينغ – كرين" إلى المنطقة بدأت عملها في تلقي الرسائل الممهورة من مخاتير القرى ومن ثم اجتمعت مع بعض العينات من المجتمع في المدن وخاصة مع جماعة "المؤتمر" المذكور واطلعت على رايهم ومن ثم زارت لبنان وسوريا وفلسطين. وبعد انتهاء مهمتها عادت إلى باريس وقدمت تقريرها للرئيس "ولسون" ومؤتمر السلام في آب ١٩١٩ ولم ينشر

[١٥] وهي جمعية أنشأت في باريس سنة ١٩١١ تشبها بجمعية "تركيا الفتاة" التي قادت "ثورة" الاتحاد والترقي سنة ١٩٠٨ ودعت إلى القومية التركية

هذا التقرير إلا سنة ١٩٢٢. المهم هنا أن الاستفتاء الأميركي لم يغير شيء بالنسبة للحلفاء. وكل ما قيل عن اسباب الهجوم على عين إبل وغيرها من القرى وربطه بموضوع الاستفتاء هو عار عن الصحة تماما لأن الاعتداءات وعمليات ترهيب الناس وفرض الخوات جرت بعد أكثر من ستة أشهر على انتهاء مهمة اللجنة وتقديم تقريرها أمام مؤتمر باريس. إذا لا بد من التساؤل ما هي الاسباب الحقيقية التي كانت خلف حدوث المذبحة؟

كان الفرنسيون والبريطانيون قد تفاهموا كما قلنا حول موضوع "فيصل" ولذا انسحب البريطانيون من سوريا في ٢٦ نشرين الثاني ١٩١٩ونصحوا الأمير "فيصل" بالتروي والتنسيق مع الفرنسيين. وفي ٦ كانون الثاني ١٩٢٠ تم الاتفاق بين الأمير "فيصل" و"كليمنصو"، وبدون وجود البريطانيين، قبل فيه الفرنسيون باستمرار العمل على وحدة سوريا تحت مظلة "الدولة العربية" وبعدم أدخال جيوش فرنسية إليها على أن تكون الحكومة الفرنسية هي الوحيدة المخولة بارسال مستشارين وخبراء فنيين لمساعدة السوريين في ادارة البلاد. وهذا أقل ما يمكن أن تطالب به دولة عظمى كفرنسا وقد كانت دفعت خلال الحرب العالمية الأولى هذه مليون ومئة وخمسون ألف قتيل لانهاء سيطرة "دول المركز" بينما لا يزال الخطر التركي ماثلا مع قوات "أتاتورك" التي تسيطر على الأناضول وتحاول استعادة السيطرة على كافة الأقاليم. وقد تفهم الأمير "فيصل" ذلك. ولكن وفور عودته إلى دمشق واعلام مساعديه بالاتفاق لم يرض بعض المتحمسين (أو الذين لهم برامجهم الخاصة) وبدأوا بشحن الأجواء المعادية لفرنسا وحقن النفوس ضد اي اتفاق معها. ومن ثم وفي خطوة تصعيدية، ولقطع الطريق ربما على اي مجال للتفاوض مع الفرنسيين، قام "المؤتمر السوري العام" باعلان استقلال "المملكة السورية العربية" بحدودها الطبيعية (والتي تشمل لبنان وفلسطين والأردن ولواء اسكندرون والأقاليم السورية الشمالية) وتنصيب الأمير "فيصل" ملكا عليها وذلك في ٨ آذار ١٩٢٠.

في الخامس والعشرين من نيسان ١٩٢٠ وقبل أن ينتهي اجتماع "سان ريمو"[١٦] بايطاليا الذي ضم المجلس الأعلى للحلفاء أي فرنسا وبريطانيا وايطاليا واليابان والذي كان بدأ اعماله في ١٩ نيسان ١٩٢٠ وكان من ضمن مباحثاته تفاصيل موضوع الانتداب على الدول التي كانت خاضعة للسلطنة العثمانية، قام بعض المرتبطين بالقيادة في دمشق بالدعوة لما سمي "بمؤتمر وادي الحجير".

ضم هذا المؤتمر عددا كبيرا من وجوه جبل عامل الشيعية وكانت خطبة السيد "عبد الحسين شرف الدين" مفتي جبل عامل هي التي أعطت "للثوار" أو ممثلي الخط العسكري المتصلب في دمشق الغطاء الشرعي لفرض التبعية لدمشق. وقد ورد بين ما تناقله الأهالي بأن فتوى العلامة المذكور حللت الهجوم على القرى الممتنعة عن رفع علم المملكة[١٧] وسمحت بفرض الخوات جزية أو ضريبة على الراس، ما أنكره عدد ممن كتب عن الحادثة لاحقا ومنهم السيد نفسه الذي قال بأنه أيد حكومة دمشق صحيح ولكنه طلب الحفاظ على "الوحدة الوطنية". ومن ملابسات هذا المؤتمر ايضا فقد قال البعض بأن الزعيم "كامل بيك الأسعد" لم يحضره بينما قال آخرون بأنه هو من كان دعى إليه. ومهما كان من أمر هذا المؤتمر فنتائجه كانت مؤلمة.

كان الغلاة من الجماعات المسلحة الذين يأتمرون بأمر الأمير "الفاعور" قد بدأوا بتنفيذ سلسلة من الاستعراضات المسلحة وفرض الخوات على الكثير من القرى المسيحية في المنطقة فتهجرت من خلالها بعض المزارع ونزح أبناء القرى المسيحية القريبة من صور إلى المدينة طلبا للأمن بينما رضخ البعض الآخر لمطالب المسلحين ودفعوا الجزية بحسب طلباتهم. ومن هذه القرى دردغيا وطير سمحات وبرعشيت وصفد البطيخ وقانا وياورن وغيرها[١٨]. أما أبناء عين إبل فقد كانوا رفضوا الرضوخ إلى أوامر هذه "العصابات " وعندما راجعوا المسؤولين في صور قيل لهم بأنه لا وجود لقوات

[١٦] انتهى المؤتمر في ٢٦ نيسان ١٩٢٠
[١٧] يقال بأنه قرأت "الفاتحة" على عين إبل خلال هذا المؤتمر
[١٨] يذكر الأب يوسف فرح أكثر من ١٦ ضيعة ومزرعة حصل فيهم تعدي على الأهالي والممتلكات

فرنسية مقاتلة في المنطقة لحماية القرى ومنع التعديات حاليا[١٩]، ولذا فعليهم حماية أنفسهم حتى تتوضح الأمور. عندها حاولوا شراء بعض البنادق والذخيرة التي تكفي لمنع السطو المسلح أو لرد اعتداء بسيط وافهام "العصابات" بأن الأمور ليست متروكة وأن البلدة ليست سائبة. وبالفعل عندما أرسل "صادق حمزة"، وهو في يارون يجمع الجزية من أبنائها، رسالة تهديد لعين إبل بدفع جزية الراس أي ليرة ذهب عن كل شخص وتسليم ٢٠٠ قطعة سلاح، كان رد أبناء البلدة بالرفض. وما كان من "صادق حمزة" إلا أن سارع مع قواته باتجاه البلدة لاخضاعها وقد حصل اشتباك مسلح رد على اثره الهجوم يومها قبل الوصول إلى البلدة. ثم حاول مرة أخرى مهاجمة قرية دبل فما كان من أبناء عين إبل إلا أن أنجدوا جيرانهم ومنعوا "حمزة" وعصابته من دخولها. وقد تكون هذه الحوادث هي التي دعت "صادق حمزة" و"أدهم حنجر" وغيرهم من رؤساء العصابات المسلحة للدعوة إلى مؤتمر وادي الحجير وطلب مساندة الجميع لهم للقيام باخضاع عين إبل.

في صباح الخامس من أيار ١٩٢٠ وبينما كان الزعيم "كامل بيك الأسعد" مجتمعا مع الكولونيل "نيجر" الفرنسي في النبطية حيث عرض الوضع الحالي والفلتان الأمني واتفقا على أن يكون "الأسعد" ممثل الشيعة في جبل عامل وأن يعمل على تأليف حرس وطني مسؤول عن حماية السكان بالتنسيق مع الفرنسيين، قام أكثر من ٣٠٠٠ مقاتل يتبعون لجماعة دمشق من "العصابات المسلحة" بالهجوم على عين إبل من ثلاث جهات. وحاول الأهالي الصمود ورد الهجوم خلال تسع ساعات من القتال المضني سقط فيه كثير من الشباب العينبلي بين قتيل وجريح ولم يتمكن خلالها المهاجمون من الوصول إلى البلدة. فما كان منهم وقبل حلول الظلام إلا اللجوء إلى الخديعة. فرفعوا المصاحف وأرسلوا الرسل يطلبون وقف النار مدعين بأن "كامل بيك" وصل وأمر بوقف الهجوم. وهو سيأتي إلى البلدة لتطمين الأهالي. عندها قبل الأهالي المضنكون من القتال والذين لا يطلبون سوى منع التعدي عليهم، بوقف النار. وسمحوا للقادمين مع أعلامهم البيضاء بالدخول إلى القرية. وما أن وصلت

[١٩] نلاحظ هنا بأن فرنسا كانت عند كلمتها بالنسبة لارسال جيوش إلى سوريا ولبنان بحسب اتفاق كليمنصو وفيصل الذي جرى في كانون الثاني ١٩٢٠

طلائعهم إلى ضهر العاصي حتى فتحوا النار على الحامية هناك ودخلوا القرية ممعنين بالقتل والنهب والحرق. فاستبسل أهالي البلدة لفتح طريق الهرب صوب الجنوب ودخلوا إلى الأراضي الفلسطينية.

البطريرك الماروني مار الياس بطرس الحويك

الأب الروحي للبنان الكبير

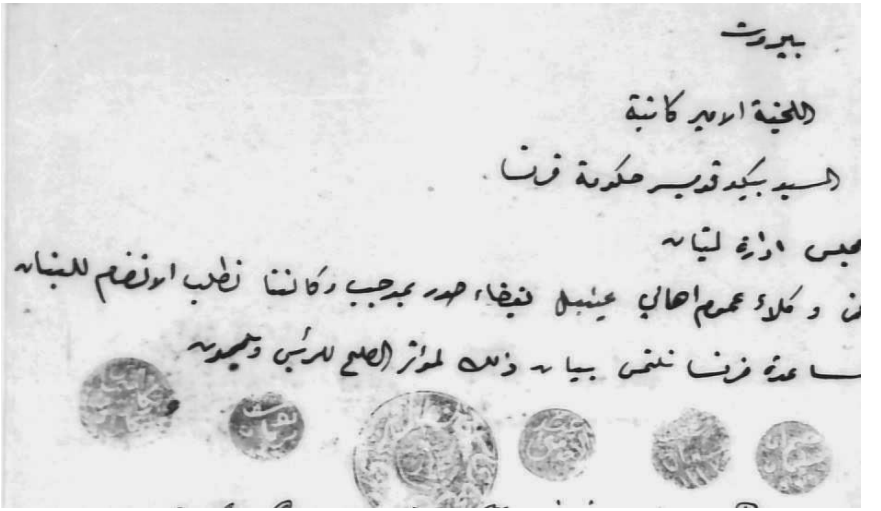

جواب عين ابل الموجه إلى اللجنة الأميركية حول الانضمام إلى لبنان

انتهاء مملكة فيصل

وصل أغلب أهالي عين إبل إلى قرية كفربرعم المارونية على الحدود داخل فلسطين الواقعة تحت الانتداب البريطاني. وأكمل بعضهم إلى قرية الجش القريبة. ونزلوا عند الأصدقاء والأقارب. وفي صباح اليوم الثاني وصل أمر من الحاكم العسكري في صفد يطلب إلى جميع المهجرين الانتقال إلى مدينة صفد. وهناك كانت حضرت لهم أماكن للسكن المؤقت في المدارس. وقامت بعض الجمعيات اليهودية بالتبرع بتزويدهم بالطعام والشراب لكامل المدة التي أمضوها هناك. وفي اليوم الثالث حضر الحاكم العسكري وطلب الاجتماع مع ممثلي البلدة ومنهم المخاتير والكهنة والناجون من زعماء العائلات. فرحب بهم وسأل عن حاجاتهم وما يقدم لهم من مساعدات. وأظهر تاثره بالأحداث التي جرت. وكان رد الجميع بأنهم يتمنون العودة إلى قريتهم باسرع وقت. فاقترح عليهم توقيع التماس إلى حكومة جلالة "الملك جورج" طلبا للحماية وعندها يمكن العمل لاعادتهم إلى قريتهم فورا بحماية الجيش البريطاني. وكان رد ممثلي الأهالي شكر حضرة الحاكم على كل ما قدم من المساعدات والرعاية ولكن فيما خص توقيع الالتماس بالحماية البريطانية فإن لنا "مشورة" في ذلك ولا نستطيع تقديم إي طلب قبل حصولها. عندها أمر الحاكم بنقلهم إلى حيفا تحضيرا لعودتهم بواسطة الزوارق إلى صور. وفي حيفا قام المطران "حجار" مطران الروم الكاثوليك باستقبال المهجرين ومساعدتهم على الاقامة ريثما يعودون إلى لبنان.

بقيت عين إبل مدة ثلاثة أسابيع عرضة للنهب والحرق ولم يقم أحد من سكان المنطقة باستنكار الحادث ولا بالعمل على اعادة المهجرين

أو حتى دفن الموتى. وفي هذه الأثناء قام الجيش الفرنسي بارسال قوة من ١٠٠٠ جندي بحرا إلى صور وضعت تحت قيادة الكولونيل "نيجر". وبدأت هذه القوة منذ أوائل حزيران تنظيف المنطقة من فلول العصابات. وقد تبخرت القوات المعادية تماما ولم يجرؤ أحد على مواجهة القوة الفرنسية. وفي هذه الاثناء بدأ أهالي عين إبل بالوصول إلى صور بحرا. ومن ثم أنتقل بعض الشباب إلى البلدة لدفن الموتى ومحاولة تأمين أماكن لعودة السكان. وعلى صعيد آخر نقل عن "كامل بيك الأسعد" وعند لقائه صدفة أحد أبناء عين إبل[٢٠] بعد حوالي شهر على الحادثة قوله "أن عين إبل خسرت بالفعل أبناءها ولكن الشيعة خسروا شرفهم".

أما على الصعيد السياسي فقد كان رئيس الوزراء في حكومة الملك فيصل "علي رضا الركابي" قد قدم استقالته في الثالث من ايار، اي قبل يومين من مجزرة عين إبل، احتجاجا على حماس الخط المتشدد الذي كان يدعو لمواجهة الفرنسيين بالقوة واعتقاده بأن استعمال القوة ليس من مصلحة المملكة العربية. فعين "هاشم الأتاسي" رئيسا للوزراء مكانه وبقي "يوسف العظمة" وزير الحربية وصاحب نظرية المواجهة يحضر الأرض ويحشد المتطوعين لمحاربة الفرنسيين. وبعد مجزرة عين إبل بدأ "العظمة"[٢١] جولته على الشمال السوري لحشد المتطوعين، خاصة من منطقة حلب، واثناء زيارته لحلب اتصل بجماعة الأناضول من جيش "اتاتورك" محاولا التنسيق والحصول على المزيد من الاسلحة والذخائر ولكنه لم ينجح في مسعاه على ما يبدو ولا حتى في تطويع عدد كبير من السوريين لتأليف جيش يمكنه مواجهة الفرنسيين التي أصبحت جدية هذه المرة.

بعد الاحداث التي جرت في جبل عامل وسيطرت القوات الفرنسية على الأرض حتى الحدود السورية تقريبا وبعد أن عاد "العظمة"

---

[٢٠] الخوري يوسف فرح التقى كامل بيك في صالحة بفلسطين أوائل شهر حزيران بعد الحادثة يقال بأنه اجتماع دبر من قبل أحد أبناء صور من بيت نور.

[٢١] قد يكون العظمة مسؤولا مباشرا عن أمر الهجوم على عين إبل في محاولة منه لتأديب الأهالي ومنع أي معارضة لمخططاته وهذه الطريقة الارهابية سنجدها تتكرر في تاريخ المنطقة حتى الاحداث الأخيرة في سوريا وسائر مناطق الصراع في الشرق الأوسط اليوم

خائبا من جولته في الشمال السوري واتصاله بالأتراك نزلت قوات فرنسية جديدة في بيروت وبدأت بالتوجه إلى البقاع اللبناني. في الرابع عشر من تموز ١٩٢٠ أعطى الجنرال "غورو" انذارا للملك "فيصل" لحل الجيش العربي والقبول بالانتداب الفرنسي وإلا فعليه مواجهة القوات الفرنسية وذلك في مهلة تنتهي في ٢٢ تموز ١٩٢٠ أي بعد ثمانية ايام من صدور الانذار. في ١٨ تموز ١٩٢٠ وافق "فيصل" وكل أعضاء الحكومة ما عدى وزير الحربية "العظمة" على الشروط الفرنسية. ويقال بأن "فيصل" أمر بحل القوات التي ترابط في عنجر[٢٢]. ولكن جماعة "يوسف العظمة" حركت الشارع وقامت بمظاهرات شكلية للضغط على الحكومة. فلم يبلّغ "فيصل" الجنرال "غورو" بالموافقة مع أنه كان هناك ضابط ارتباط فرنسي يقيم في دمشق من أجل أمور كهذه. وقيل بعد ذلك أن فيصل ابلغ ضابط الارتباط في ٢٠ تموز بقبوله الانذار ولكن " غورو" لم يتلقى الرد الا في ٢١ تموز. عندها استدرك "فيصل" خطورة الأمر وحاول استعطاف الجنرال "غورو" فأرسل وزير التربية "ساطي الحصري" و"جميل الأولشي" الممثل السابق للحكومة العربية في بيروت لمقابلته في عاليه واقناعه بوقف الزحف إلى دمشق. قبل الجنرال غورو تمديد الانذار ليوم واحد ولكنه اضاف شرطا جديدا وهو أن يتم انشأ بعثة فرنسية صغيرة في دمشق لمراقبة تنفيذ بنود الانذار. أسرع "الحصري" إلى دمشق في نفس اليوم ونقل مطالب "غورو". دعى الملك "فيصل" الحكومة للاجتماع في ٢٣ تموز للنظر في الشروط الجديدة وفي اثناء الاجتماع قاطع الكولونيل "كوس" ضابط الارتباط الفرنسي الجلسة بناء على طلب من الجنرال "غورو" للسماح للقوات الفرنسية بالتقدم باتجاه ميسلون حيث يوجد كثير من آبار المياه. كانت خطوة الكولونيل الفرنسي بمناسبة اشارة بالنسبة للسوريين بأن القوات الفرنسية قادمة فقاموا برفض الانذار. وهكذا فاز تيار وزير الحربية "يوسف العظمة" بفرصته لمواجهة الفرنسيين.

[٢٢] غير دقيق لأن البعض يقول بأن هذه القوات حاولت التصدي للجيش والفرنسي ولم تصمد.

من الطبيعي أن ينتصر الجيش الفرنسي المجهز بالدبابات والذي تسانده المدفعية وحتى الطائرات[٢٣] على قوات "العظمة" المؤلفة من بقايا جنود أتراك وبعض الخيالة العرب ومتطوعين بسيطي التسليح. وقد استبسل وزير الحربية حتى الاستشهاد في هذه المعركة. وكانت النتيجة دخول الجيش الفرنسي إلى دمشق وسقوط الحلم "بالمملكة العربية". ولكن هل يمكن القول بأن "يوسف العظمة" بتعنته وقتاله الفرنسيين ترك في قلوب السوريين خاصة تلك الروح الرافضة التي لا تزال إلى اليوم ترافقهم في كل تحركاتهم. ما جعل بلاد الشام بؤرة للمعارضة والحقد على كل المشاريع التي تعرض. فهل هذا ما أراده "العظمة"؟ وماذا كان سيحل بالمنطقة لو أن الملك "فيصل" كان قبل بشروط الفرنسيين وبنى رويضا "مملكة سورية" الفدرالية ونظمها تحت اشراف فرنسا وبريطانيا. وهل كان بالامكان تجنب كل الصراعات التي نشأت لاحقا من حروب فلسطين إلى الانقلابات المتكررة في سوريا والعراق إلى حرب لبنان وحتى ما يسمى "بالمقاومة الإيرانية" اليوم ونتائج تدخلها واعادة تفتيت سوريا وفتح شهية تركيا "اردوغان"؟

بعد سنة من المجزرة عادت عين إبل لتنطلق من جديد وتجمع بنيها في احتفال مهيب بمناسبة الخامس من ايار وتقوم بتدشين قبر الشهداء الذي بني بهمهم ومساعدة أخوتهم المهاجرين في الأرجنتين وقد شاءوا له أن يكون كبيرا بكبر الماساة وبقرب الكنيسة التي كانوا افتخروا ببنائها وسقفها بالقرميد قبل حدوث المجزرة. وهم خسروا حوالي المئة شهيد كتبوا اسماء بعضهم على لوحة من الرخام في الجهة الخلفية من القبر بينما زينت واجهته لوحة نقشت عليها أبيات شعر كان قالها أحد الشعراء اللبنانيين في مناسبة الاحتفال بذكرى المجزرة وتقول:

[٢٣] حتى ولو كان استعمالها لعمليات المراقبة والاستطلاع

شربل بركات

يا سائرا عج بالضريح تكرما وأذرف دموعا حسرة وتألما
وقل السلام على رفات شبيبة قد ضمها رمس تدّرج بالدما

حي العذارى والشيوخ ورضعا وأراملا بل حي هذي الأعظما
هذي ضحايا أنشبت أنيابها فيها ضواري قد ابت أن ترحما

شهداء قد بلغ السماء صراخهم فالله يفعل في جناة مثلما

وقد بقيت عين إبل تحتفل بذكرى شهدائها طيلة المئة سنة الماضية بمسيرة إلى ساحة القبر لطلاب المدارس وببعض الكلمات التي تنوه بالبطولة والتضحية أمام المجتمعين من أبناء البلدة وقد اقتصرت هذه المناسبة بعد الحرب على وضع أكاليل الزهور والقاء النشيد العينابلي من قبل عناصر الكشافة (ربطا كلمات هذا النشيد).

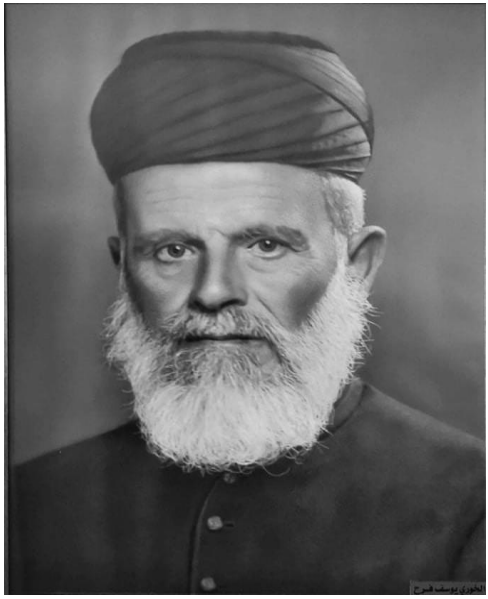

الخوري يوسف فرح خادم رعية السيدة المارونية في عين إبل خلال تلك الأحداث

الأمير فيصل والوفد المرافق لمؤتمر الصلح في باريس

رضا باشا الركابي رئيس الوزراء

ملحق ١

أدهم خنجر أحد رجال العصابات التي هاجمت عين إبل في الخامس من أيار ١٩٢٠

والذي يحاول البعض أن يجعل منه أحد أبطال الاستقلال

يقال بأن أدهم خنجر هو من قرية المروانية في جنوب لبنان التي تقع على الطريق الرئيسي بين الزهراني والنبطية. وقد التحق بالقوى التابعة لدمشق يوم عين محمود الفاعور قائدا لقوات ما سمي "بالمملكة العربية" في الجولان وما يتبعها إلى الغرب. وكان محمود الفاعور، وهو زعيم عرب الفضل الذين ينزلون في بعض قرى الجولان السوري ويمضون فصل الشتاء في سهل الحولا، قد أيد الأمير فيصل عند دخوله دمشق بعد انسحاب قوات العثمانيين منها أمام جيوش الحلفاء بقيادة الجنرال البريطاني اللنبي.

كان بعض الجنوبيين المنظورين، الذين التحقوا بجمعية "الاتحاد والترقي" في ايام سيطرتها على قيادة الجيش العثماني وحظيوا بمراكز في الادارة ما قبل الحرب العالمية الأولى، يحاولون كغيرهم من اللبنانيين والسوريين نقل البندقية، وذلك بالانضمام إلى ما سمي "العربية الفتاة" (وهي جمعية كانت أنشأت في باريس سنة ١٩٠٩ على غرار "تركيا الفتاة" التي ساهمت في تغيير السلطان عبد الحميد الثاني). وإذ لم يكن عند الأمير فيصل مشروع جاهز لادارة الدولة اعتمد على بقايا النظام البائد هؤلاء في السياسة والعسكر.

ولكنه بالطبع فضّل، حيثما استطاع، الولاء "الطبيعي" للقبائل العربية. من هنا كانت تسمية محمود الفاعور لانشاء قوة محلية في جنوب سوريا والحاقها بقوات فيصل. ويقول أحد الباحثين السوريين (عز الدين سطاس) بأن فيصل زوّد الفاعور بوحدة عسكرية مؤلفة من مئة مقاتل يقودها ضابط (قد يكون ذلك بعد أن تسلم يوسف العظمة وزارة الدفاع وحاول السيطرة أكثر على المجموعات المنضوية تحت لواء فيصل).

قام محمود الفاعور بتجميع ما استطاع من العرب (أي البدو) في منطقة الجولان تحت لواء السلطة الجديدة ولكنه لم يستطع الحاق بدو فلسطين لوجود القوات البريطانية الكثيف هناك وسيطرتهم عليها وتفاهمهم مع أغلب القبائل فيها. ولا هو حاول الاتفاق مع زعماء جبل عامل الاساسيين كونهم لن يرضوا بزعامته عليهم فهم لم يقبلوا مرة بالتبعية لجيرانهم البدو. من هنا فقد حاول الاتصال ببعض الذين يفتشون عن دور ما في اثناء المتغيرات. وهكذا استطاع الحاق بعض المتحمسين والمخبرين التابعين للقوات العثمانية الذين يصبون إلى غطاء ما بشغل منصب في الادارة الجديدة، بالاضافة إلى عدد ممن يمني النفس بالغنائم وفرض الخوات في ظل عدم الاستقرار.

كان صادق حمزة من قرية دبعال والتي تقع شمال جويا بين الشهابية ومعركة في قضاء صور أحد الملتحقين بقوات الفاعور كما التحق ايضا محمود محمد بزي من بنت جبيل وأدهم خنجر من المروانية وأحمد بوزكلي من حولا وعلي جعفر (الملقب بأبي الجواريش) من يارون وغيرهم. ولم يكن من بين هؤلاء من يمثل زعامة البلاد الشيعية ما يدل على أن عامة السكان لم تكن متحمسة للموضوع.

بعد تفاهم فيصل وكليمنصو في كانون الثاني ١٩٢٠ على قبول فرنسا بأن يحكم سوريا شرط اشراف المستشارين الفرنسيين على التنفيذ، قام بقايا الحكم العثماني الملتفين حول فيصل بدفع الأمور باتجاه التصادم. فأوعزوا إلى جماعات المسلحين في جبل عامل

للبدء بفرض الخوات والتهويل على السكان المسيحيين في القرى الصغيرة كنوع من التهديد بالفوضى. ومن جهة ثانية اعلنوا قيام المملكة العربية وتنصيب فيصل ملكا عليها كخطوة لضرب اي تفاهم بينه وبين الفرنسيين. ثم تشكلت حكومة تسلم فيها يوسف العظمة الضابط السابق في الجيش العثماني وزارة الحربية. وما كان منه إلا أن أوعز إلى بعض عملائه للدعوة إلى مؤتمر وادي الحجير تحت اسم الزعيم المحلي كامل بيك الأسعد، وبدون معرفة الأخير، محاولة لوضعه تحت الأمر الواقع واستعمال اسمه لتأمين حضور شعبي. وكان هذا المؤتمر منصة لتهييج الغرائز ودفع الوضع نحو الصدام. ويدل قيام المفتي عبد الحسين شرف الدين بزيارة دمشق فور انتهاء المؤتمر، بشكل واضح، أن الأمر كان أتى من هناك وبأنه ذهب ليقدم تقريره.

أما التعديات التي قامت بها جماعات المسلحين المنضوين تحت راية محمود الفاعور وبقيادة صادق حمزة وأدهم خنجر وغيرهم فقد شملت كل القرى المنتشرة جنوب الليطاني من طير سمحات ودير سريان ودردغيا والنفاخية إلى دير كيفا والطويري وعلمان القصير، إلى دير ميماس وسردة والعمرا وجديدة مرجعيون وراشيا الفخار في الشرق والتي شارك فيها محمود الفاعور شخصيا، على ما يبدو. ولم تسلم برعشيت وصفد البطيخ ويارون وقانا وإقرت والبقبوق وغيرها من القرى التي سكنها المسيحيون مع اخوانهم الشيعة منذ أجيال. ولكنهم لم يستطيعوا المساس بعين إبل ودبل ورميش ما دفعهم إلى التخطيط لجعلها الضربة الكبرى. من هنا وبعد مؤتمر وادي الحجير، الذي أعطى هؤلاء غطاء معنويا، قامت كل القوى التي تتبع "للأمير محمود الفاعور" قائد قوات جنوب سوريا، والذي يتبع أوامر وزير الحربية في حكومة فيصل ومن ضمنها بعض قبائل البدو في الغرب، بالهجوم على عين إبل في الخامس من أيار ١٩٢٠ وفي الوقت الذي كان الزعيم كامل بيك الأسعد مجتمعا مع الكولونيل نيجر في النبطية للتفاهم حول موضوع الأمن في المنطقة. من هنا نستطيع تفهم غضب الكولونيل نيجر على الأسعد والذي اعتبره خيانة وتلاعب، ونفهم أيضا موقف كامل بيك في قوله "إن

عين إبل خسرت صحيح ابناءها ولكن الشيعة خسروا شرفهم". فقد كانت هذه العصابات تعمل في نفس الوقت على تشويه صورته شخصيا وزج جبل عامل في قضية لم يتبناها سكانه من قبل.

أما بعد الهجوم على عين إبل وتركها عرضة للنهب مدة ثلاثة أسابيع حتى تشكيل فرقة فرنسية استقدم بعض عديدها بحرا من بيروت وقيادتها من قبل الكولونيل نيجر، فقد هربت جماعات المسلحين وأخضعت كافة مناطق الجنوب اللبناني.

يقول البعض بأن مجزرة عين إبل كانت مقدمة لمعركة "ميسلون" التي انهت حكم فيصل القصير. قد يكون صحيحا بمعنى أن الفرنسيين لم يعودوا يثقوا بكلام فيصل وقدرته على التحكم بمصير المنطقة. فهو بدل أن يحمي السكان، قامت عناصر تحت "قيادته" بعمليات تهجير وابادة. ولم يسعَ إلى وضع حد لهذه الأمور، ولا فتح تحقيقا بما جرى. ولكن بالرغم من كل هذا بقيت جماعة يوسف العظمة وعملائه هي من يدير الأمور، وبدل العمل على تغيير النظرة تجاه حكم فيصل، بالتحضير لمواجهة الفرنسيين، وكأنهم يعملون كجماعة من المخابرات العثمانية (تشكيلات محسوسة) داخل خطوط "العدو". ولو أن الاتراك لم يكونوا جاهزين لاستغلال هذه التحركات، لأن أتاتورك كان منشغلا باعادة السيطرة على الجيش ومن ثم استعادة تركيا التي نعرفها اليوم بما اسماه حرب التحرير. وقد قام يوسف العظمة بزيارة لشمال سوريا حيث اتصل بجماعات اتاتورك تحت غطاء تطويع المزيد من العناصر للدفاع عن دمشق.

بعد مجزرة عين إبل هرب أدهم خنجر ليلتجئ في الجولان السوري حيث لم تتابع القوات الفرنسية تنظيف المنطقة هناك. وبعد معركة ميسلون رضخت كل القوى التي كانت تنادي بفيصل للأمر الواقع. وحاول الفرنسيون بعد أن استتب الأمن في المنطقة محاورة السكان المحليين واعطائهم بعض المسؤوليات فأعلنوا عن عفو عام عن المقاتلين ومنهم محمود الفاعور وجماعته. وفي سنة ١٩٢١ قام بعض الضباط باجراء حوار مع محمود الفاعور حول تسليمه بعض

المسؤوليات في منطقة الجولان. وصلت المباحثات حتى إلى قيام الجنرال غورو بزيارة له في قصره في "واسط" بالجولان. وبدأت التحضيرات لاستقبال الجنرال غورو. ولكن كان هناك، على ما يبدو، من بين قبائل الجولان من لم يعجبه تسلم الفاعور للمسؤولية، ومنهم احمد مريود، فقرر افشال الموضوع وأرسل صديقه أدهم خنجر فكمن لسيارة الجنرال غورو في حزيران من السنة نفسها واطلق النار عليه واصابه في يده الاصطناعية وفر هاربا. فقامت القوات الفرنسية بعملية تمشيط في المنطقة والقاء القبض على بعض المشتبه باشتراكهم في العملية، وفر احمد مريود إلى الأردن حيث التجأ إلى بعض القبائل هناك. وخاف أدهم خنجر من أن يلقي الأنكليز القبض عليه فالتجأ إلى سلطان باشا الأطرش للاحتماء في منطقة السويدا حيث تم القبض عليه فيما بعد وحكم بالاعدام.

المهم بالموضوع بأن أدهم خنجر لا يشرّف الطائفة الشيعية في لبنان، كما يحاول البعض تصويره، لا بعملياته في التفريق بين المواطنين ومهاجمة القرى المسيحية وفرض الخوات، وخاصة وصمة العار التي حملها ورفاقه في مجزرة عين إبل، ولا بتنفيذه محاولة قتل الجنرال غورو الذي كان يزور رئيسه المفترض "الامير محمود الفاعور" وهو شيخ قبائل الفضل التي يحتمي عندهم. وأن تلك العملية لم تكن من الشجاعة بشيء ولا تمت للوطنية بصلة لأنها لا تقدم ولا تؤخر في السياق العام للأحداث. ومرور الجنرال كان معروفا مسبقا ولم يكن صدفة ولا نتج عن حماس أو وطنية إنما عن مواضيع شخصية بين ابناء الجولان ونزاعهم على السلطة. وكانت هذه العملية وزيولها أثرت سلبا لا بل أخرت كثيرا في تنظيم الحياة الطبيعية للمواطنين. والكلام على هكذا أعمال بأنها بطولة ومقاومة منع السوريين وبعض اللبنانيين من التعاون على الالتحاق بالدولة الفتية والعمل مع بقية ابناء الوطن لتقدم البلاد ونشر الاستقرار والعمل على ازدهارها وتنظيم الادارة فيها لكي تصبح شيئا فشيئا بلادا مستقلة بشكل كامل وبدون اراقة الدماء المجانية.

تصوير صادق حمزة وأدهم خنجر بأنهما من أبطال لبنان بينما كانا من مجموعة أذت العلاقات القائمة منذ ٤٠٠ سنة على الأقل بين مواطني هذه المنطقة والذين تعاونوا على الخير في كل ايامها، وبالرغم من المآسي، وتحملوا سوية ظلم الأتراك العثمانيين. بينما كانت العمليات التي قام بها هؤلاء المسمين مقاومين لا تخدم إلا العثمانيين ومحاولة اعادتهم كما حدث بعد مجازر ١٨٦٠ بين الدروز والموارنة والتي أدت إلى شرخ كبير بين دعامتي الاستقلال الوطني وأعادة سيطرة العثمانيين تحت شكل القائم مقاميتين الذي أعطى السلطنة مجالا أوسع للتدخل وإثارة الفتن أو ما يجري اليوم مع اردوغان من جهة وخامنئي من جهة ثانية. ولن تقوم قائمة لهذه البلاد طالما بقي فيها من يعمل على قتل جاره وتهجيره خدمة لمصالح امبراطوريات تريد أن تتسلط بالارهاب والدم والتمييز بين المواطنين باللعب على اختلاف الدين والمعتقد.

الجنرال غورو

أدهم خنجر وصادق حمزة

الأمير "المعيّن" محمود الفاعور

أحمد مريود من رؤساء العصابات العاملة في الجولان السوري ومن المهاجمين على عين إبل في الخامس من ايار ١٩٢٠

سلطان باشا الأطرش

ملحق ٢

يوسف العظمة

ملخص عن حياته العسكرية

يوسف العظمة هو تركماني من سكان دمشق - سوريا ولد سنة ١٨٨٣. بعد اكماله دروسه الابتدائية سنة ١٩٩٣ دخل المدرسة الاعدادية العسكرية سنة ١٨٩٧ في جامع "تنكز" في دمشق. ومن ثم انتقل إلى مدرسة "قله لي" الاعدادية العسكرية في اسطنبول على شاطئ البوسفورفأحرز الشهادة الاعدادية سنة ١٩٠١ ومن ثم التحق بالكلية الحربية "شاهانه" في اسطنبول وتخرج منها سنة ١٩٠٣ برتبة ملازم ثاني ثم في عام ١٩٠٥ أصبح ملازما أول وانتقل إلى مدرسة الاركان حرب وحصل على رتبة بوزباشي اركان حرب عام ١٩٠٧ وقد تسلم وسام المعارف الذهبي كضابط في الجيش العثماني وكان عضوا في المنطمة السرية "جمعية الاتحاد والترقي". وقد تابع دورات تدريبية في المانيا وعاد منها سنة ١٩٠٩. في عام ١٩١٢ كان يعمل ضمن الشعبة الأولى المتفوقة - أركان حرب - في الآستانة، لكنه إضطر بعدها إلى التنقل بين قطعات الجيش العسكرية إبان حرب البلقان ١٩١٣. وما لبثت أن أندلعت الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨ فأرسل رئيساً لأركان حرب الفرقة العشرين ومن ثم الخامسة والعشرين العاملة في بلغاريا، وخدم ايضا في النمسا ثم في رومانيا، حيث عمل على مقربة من قائد الجبهات المارشال ماكترون قائد القوى الألمانية

المحاربة والذي ضمه إلى هيئة أركان الحرب الألمانية ممثلاً عن الجيش العثماني.

عاد يوسف بعدها إلى الآستانة ليصبح مساعدا لوزير الحربية العثمانية أنور[٢٤] باشا وليبدأ في التنقل وتفقد الجيوش العثمانية في كل من الأناضول وسورية والعراق، وما لبث أن عين رئيساً لأركان حرب القوات المرابطة في القفقاس بسبب تأزم الأحداث هناك، ثم أصبح رئيساً لأركان حرب الجيش الأول بإسطنبول. في نهاية تشرين الأول عام ١٩١٨ انتهت الحرب العالمية وعاد يوسف العظمة إلى الاستانة ومنها سافر إلى دمشق عقب دخول الأمير فيصل بن الحسين إليها، فاختاره الأمير فيصل، قبل أن يصبح ملكاً، مرافقاً له، ثم عينه معتمداً عربياً في بيروت، فرئيساً لأركان الحرب العامة برتبة قائم مقام في سوريا. ثم ولّي وزارة الحربية سنة ١٩٢٠ وأصبح وزيراً للحربية السورية بدمشق، فنظم جيشاً وطنياً سورياً يناهز ١٠ آلاف مقاتل. وبعد مجزرة عين إبل توجه إلى شمال سوريا وخاصة منظقة حلب لترغيب السوريين على الالتحاق بقواته واتصل بالجيش التركي في الاناضول لتأمين المزيد من المساعدات ولكنه على ما يبدو لم يحصل إلا على الوعود كون أتاتورك كان يسعى لتنظيم الجيش واستعادة السيطرة على الاراضي التركية. فعاد لينظم قواته لمواجة الفرنسيين ولو أن فيصل لم يكن يحبذ تلك المواجهة.

[٢٤] أنور باشا كان أحد الثلاثة الذين قادوا السلطنة العثمانية للحرب العالمية الأولى وقد حكم بالخيانة العظمى من قبل السلطنة بعد الحرب والتحق بالروس ثم انقلب عليهم ليموت مقتولا في نواحي بخاري.

يوسف العظمة الضابط العثماني

يوسف العظمة وزير الحربية في حكومة فيصل

ملحق ٣

اتفاقية الأمير فيصل وحاييم وايزمان ممثل الوكالة اليهودية

اتفاقية فيصل ووايزمان التي قيل بأنها وقعت من قبل الأمير فيصل بن حسين بن علي مع حاييم وايزمان رئيس المنظمة الصهيونية آنذاك وأول رؤساء إسرائيل لاحقا للتعاون بين العرب واليهود في الشرق الأوسط بعدما كانا التقيا على هامش مؤتمر باريس للسلام ١٩١٩ .

"إن الأمير فيصل ممثل المملكة العربية الحجازية والقائم بالعمل نيابة عنها والدكتور حاييم وايزمان ممثل المنظمة الصهيونية والقائم بالعمل نيابة عنها، يدركان القرابة الجنسية والصلات القديمة القائمة بين العرب والشعب اليهودي ويتحقق أن أضمن الوسائل لبلوغ غاية أهدافهما الوطنية هو في اتخاذ أقصى ما يمكن من التعاون في سبيل تقدم الدولة العربية وفلسطين ولكونهما يرغبان في زيادة توطيد حسن التفاهم الذي بينهما فقد اتفقا على المواد التالية:

- يجب أن يسود جميع علاقات والتزامات الدولة العربية وفلسطين أقصى النوايا الحسنة والتفاهم المخلص وللوصول إلى هذه الغاية تؤسس وتحمى وكالات عربية يهودية معتمدة حسب الأصول في بلد كل منهما.
- تحدد بعد اتمام مشاورات مؤتمر السلام مباشرة الحدود النهائية بين الدول العربية وفلسطين من قبل لجنة يتفق على تعيينها من قبل الطرفين المتعاقدين.
- عند إنشاء دستور إدارة فلسطين تتخذ جميع الإجراءات التي من شأنها تقديم أوفى الضمانات لتنفيذ وعد الحكومة البريطانية المؤرخ في اليوم الثاني من شهر نوفمبر سنة ١٩١٧.
- يجب أن تتخذ جميع الإجراءات لتشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين على مدى واسع والحث عليها وبأقصى مايمكن من السرعة لاستقرار المهاجرين في الأرض عن طريق الاسكان الواسع والزراعة الكثيفة. ولدى اتخاذ مثل هذه الإجراءات يجب أن تحفظ حقوق الفلاحين والمزارعين المستأجرين العرب ويجب أن يساعدوا في سيرهم نحو التقدم الاقتصادي.
- يجب أن لا يسن نظام أو قانون يمنع أو يتدخل بأي طريقة ما في ممارسة الحرية الدينية ويجب أن يسمح على الدوام أيضًا بحرية ممارسة العقدية الدينية والقيام بالعبادات دون تمييز أو تفصيل ويجب أن لا يطالب قط بشروط دينية لممارسة الحقوق المدنية أو السياسية.

- إن الأماكن الإسلامية المقدسة يجب أن توضع تحت رقابة المسلمين.
- تقترح المنظمة الصهيونية أن ترسل إلى فلسطين لجنة من الخبراء لتقوم بدراسة الإمكانيات الاقتصادية في البلاد وأن تقدم تقريرا عن أحسن الوسائل للنهوض بها وستضع المنظمة الصهيونية اللجنة المذكورة تحت تصرف الدولة العربية بقصد دراسة الإمكانيات الاقتصادية في الدولة العربية وأن تقدم تقريرا عن أحسن الوسائل للنهوض بها وستستخدم المنظمة الصهيونية أقصى جهودها لمساعدة الدولة العربية بتزويدها بالوسائل لاستثمار الموارد الطبيعية والإمكانيات الاقتصادية في البلاد.
- يوافق الفريقان المتعاقدان أن يعملا بالاتفاق والتفاهم التامين في جميع الأمور التي شملتها هذه الاتفاقية لدى مؤتمر الصلح.
- كل نزاع قد يثار بين الفريقين المتنازعين يجب أن يحال إلى الحكومة البريطانية للتحكيم.

وقع في لندن، إنجلترا في اليوم الثالث من شهر يناير سنة ١٩١٩"

الأمير فيصل وحاييم وايزمان

ملحق رقم ٤

الوثيقة التي وجدت في قبر الشهداء

تاريخ الأحداث التي جرت في عين إبل خصوصا في سنة ١٩٢٠ الف وتسعماية وعشرون مسيحية وأخصها الحادث الذي جرى على عين إبل في خمسة من شهر ايار من السنة ذاتها

وقد نقلها المونسينيور ايلي بركات بخط يده وقمت أنا بنقلها ايضا ومن ثم حفظ نسخة منها الاستاذ يوسف خريش ونشرها على صفحته على شبكة التواصل الاجتماعي كي تبقى للذاكرة..

في أواخر الف وتسعماية وتسعة عشر ألّف مسلمو سوريا ومتاولتها عصابات غايتها طرد الدولة الفرنسية وملاشات العنصر المسيحي القليل العدد الموجود بينها فأخذوا يغزون بلاد المسيحيين ويقتلون ويحرقون ويهدمون دون ممانع ولا معارض لأن الحكومة المحتلة تراخت معهم لآخر درجة لاسباب نجهلها حتى أن حكام صور الفرنسيين عندما كانوا يعلمون بقدوم العصابات وبقربها من صور كانوا يهربون إلى السفن الشراعية وباتوا عدة ليالي في البحر.

زعماء هذه العصابات هم: صادق حمزة من دبين (الصحيح من دبعل) أحمد بوزكلي من حولا محمود محمد بزي من بنت جبيل أدهم خنجر (من المروانية منطقة الزهراني) بكاوات عرب الفضل غالب الطاهر أحمد المريود من جباتا الخشب أسعد عاصي من

جباتا الزيت والمير محمود الفاعور أمير عرب الفضل وهو الذي كان يدير جميع العصابات وهذه بعض القرى التي غزوها: دردغيا دير سريان دير كيفا دير سمحات (معروفة بطير سمحات اليوم) الطويري علمان القصير دير ميماس سردة العمرا جديدة مرجعيون راشيا الفخار خربة قنافار برعشيت صفد البطيخ يارون قانا إقرت البقبوق كل هذه القرى نهبت تماما وهاجرها سكانها إلى صور وصيدا وبيروت واميركا وفلسطين أما قريتنا عين إبل حينما سمع أهلها باعمال هذه العصابات باعوا ما عز وهان واشتروا فيه أسلحة وأخذوا بالسهر والمحافظة والمدافعة عن قريتهم بكل طاقتهم وبقيوا على هذه الحالة ما ينوف على خمسة اشهر لم يتمكن الاعداء من مسهم باقل أذى حتى ولا بسرقة راس طرش فهذه البسالة أهاجت عموم الشيعيين خصوصا والمسلمين عموما فعقدوا اجتماعا في وادي الحجير برياسة زعمائهم الدينيين والمدنيين نخص منهم بالذكر السيد عبد الحسين شرف الدين الذي اعطى الفتوى بخراب عين إبل تماما وبقتل عموم سكانها ووافق على هذه الفتوى عموم سادة الشيعة مع الزعيم كامل بك الأسعد وعموم الشيوخ وأوجه البلاد وقرروا الهجوم عليها نهار الأربعاء الواقع بخمسة من شهر ايار. وفي النهار ذاته ارسلوا تحارير ممضاة بامضاوات زوات بنت جبيل يؤمنون بها أهالي عين إبل عن امر كامل بيك. وقبل الظهر بساعتين هجموا كالجراد المنتشر من ثلاثة جهات الشرق والغرب والشمال ويقدر عدد المهاجمين بخمسة آلاف نسمة. فقابلهم شبان عين إبل بكل شجاعة وصدوهم عن دخول القرية مدة تسعة ساعات. ولما نفذت منهم الذخيرة وتضاعف عدد المهاجمين اركنوا للهرب من الجهة الجنوبية التي فتحوها بشجاعتهم وبقيوا محافظين عليها حتى تخلصوا الشبان مع النساء والاطفال وحينئذٍ دخلت الأعداء القرية كالوحوش الضارية وأخذوا يسلبون وينهبون ويحرقون ويهدمون ويقتلون كل من وقع بأيديهم من شيوخ وعجزة ونساء وأطفال كانوا مختبئين وبقيوا ينهبون في القرية أفواجا مدة ثمانية عشر يوما حتى هدموا البيوت وحرقوا وأخذوا ابوابها وسقوفها نورد بعضا من جملة الفظائع التي فعلوها منهم انهم قتلوا خمسة نساء في بيت واحد بعد أن عروهم من الثياب وأحرقوا يوسف ابن

الخامس من ايار ١٩٢٠

شربل بركات

حنا الديك الذي كان مقعدا بالكاز وهو حي وأحرقوا جريس ابراهيم الخورية وقرينته وهم أحياء وطلبوا أن يغيثوهم بشربة ماء فلم يفلحوا. ذبحوا روفائيل ابن يوسف الحاج على ركبة والده ثم قتلوا الوالد لأنه كان يبكي ولده فعلوا عدة فظائع يضيق المقام عنها ويخجل القلم من تسطيرها فهذه أسماء الذين قتلو :

يعقوب يوسف صادر	ابراهيم جريس	يوسف مطانيوس ابو غنام
يوسف الحاج	اندراوس عطوي	انطانس ابراهيم خريش
روفايل يوسف الحاج	عبدو العموري	ابراهيم يوسف خريش
عطاالله دياب	فارس لبس غسطين	ابراهيم يعقوب اسحاق
الياس عطاالله دياب	ديب الصيداوي	حرمة الخوري حنا
مارون الخوري صادر	مريم حرمة انطانس يوسف شباط	مريم ابنة الخوري حنا
مجيدة الخوري صادر	جريس ابراهيم الخورية	قرينة اسعد سمعان
مارون يوسف حنا روزة	حلوة قرينة جريس الخورية	تقلا حرمة حنا بو الياس صقر
مارون مخايل شباط	يوسف مارون ناصيف	حلوة حرمة انطانس جليلة
كمال حنا موسى دياب	عبد الأحد متى عتمه	جريس جليلة
يوسف دياب	مريم ارملة حنا سلوم	وديعة ابنة شكري رزق
مريم ارملة حنا مارون	ملكة ابنة قيصر خليل نيسه	مجيدة الياس موسى
سارة ابنة حنا مارون	وردة ارملة حبيب حنا مارون	سعيد روكز
ارملة انطانس جريس دلة	يوسف حنا الديك	سعدى حرمة ابراهيم جلو
حنا متى	امطانس روكز	

فهربنا جميعا إلى كفربرعم من فلسطين فنثني على أهاليها الذين قابلونا بكل ترحاب فمنا جملة اناس ذهبوا لصفد ومنا من ذهب إلى حيفا ومنا إلى يركا وأبو سنان وبعض قرايا من بلاد فلسطين وحيثما كنا نذهب كنا نعامل بكل اكرام من المسيحيين واليهود والدروز فقط وما رأينا من الاسلام إلا كل خشونة ونشوفة. نخص من جملة الذين غمرونا بالفضل سيادة المطران غريغوريوس حجار مطران طايفة الروم الكاثوليك في حيفا الذي شكل الجمعيات وأنهض الهمم لمساعدتنا. فلما حضرت الحملة بقيادة الكولونيل نيجر لقمع ثورة الثائرين ارسلت الحكومة الفرنسية عدة شخاتير إلى حيفا فنقلتنا جميعا إلى صور واعتنت بنا بقدر الامكان إلى أن يسر الله لنا العودة إلى قريتنا التي وجدناها كالخرب القديمة فابتدأنا بترميمها وقد ساعدتنا الحكومة فجلبت أخشاب للأبواب والسقوف ولحد تاريخ هذه الكتابة باقي عندنا أكثر من خمسين بيت خربا وقد ارتأينا على عمل أثر فخيم لمن قتلوا منا دفاعا عن أوطانهم فخابرنا عموم المهاجرين منا بالاقطار الأمركية فتبرعوا بقيمة مايتين ليرة انكليزية ارسلوها لهذه الغاية وباشرنا ببناء هذا القبر الذي ابتدأنا فيه من أوائل نيسان ١٩٢١ وفي الخامس من أيار بالسنة المذكورة دعينا عموم القرى المجاورة وعددا من سكان المدن مع عموم الكهنة برياسة المونسينيور فرنسيس خوري الوكيل الأسقفي وحضر مستشار لواء صيدا وحاكم صور دولباستيار وأقمنا حفلة فخمة نقلنا بها عظام عموم المقتولين بالحادث المذكور بكل ابهة ووقار إلى هذا القبر وبعدما أقيم قداسا احتفاليا عن أنفسهم في صباح خميس الصعود الواقع في ٥ ايار أودعت بهذا الرمس بين تزويد عبارات وقد القيت عدة خطب. ومن ذلك الوقت عينا الخامس من أيار عيدا فيه نصلي على أنفس الشهدا ونتذكر ما جرى لنا في هذه الحوادث.

حرر سنة الف وتسعماية واثنين وعشرون مسيحية

تعليق وشرح على الوثيقة:

- وجدت هذه الوثيقة في قبر الشهدا سنة ١٩٨١ عندما نقل القبر من مكانه الأصلي في وسط ساحة الكنيسة إلى الجهة الشمالية من الساحة وقد أعيد بناءه بنفس الحجارة وبنفس الشكل.
- من الملاحظ بأن تاريخ الوثيقة هو سنة ١٩٢٢ بينما وصف تدشين القبر والاحتفال كما تذكر في الخامس من أيار سنة ١٩٢١ ولذا راينا واجب توضيح هذا الفرق فمن موقع وجود الرسالة وقد كانت مدفونة في الجهة الجنوبية الشرقية من المكعب الأعلى للقبر الذي يحوي البلاطات الرخامية يبدو بأن الأهالي قد بنوا القبر في جزئه السفلي اي المكان الذي وضعت فيه بقايا رفات الشهداء أي الغرفة الكبيرة ولكن الجزء الأعلى من الادراج والمكعب الأخير الذي يحوي الرخام الكتوب عليه أسماء المدفونين فيه من الجهة الشرقية وأبيات الشعر من الجهة الغربية اي الأمامية فقد استمر العمل في بنائه بعد التدشين ولم ينتهي على ما يبدو قبل سنة ١٩٢٢ حيث وضعت الوثيقة أعلاه.
- أسماء زعماء "العصابات" المذكورة أعلاه صادق حمزة من دبين (الصحيح من دبعل) أحمد بوزكلي من حولا محمود محمد بزي من بنت جبيل أدهم خنجر (من المروانية منطقة الزهراني) بكاوات عرب الفضل غالب الطاهر أحمد المريود من جباتا الخشب أسعد عاصي من جباتا الزيت والمير محمود الفاعور أمير عرب الفضل. هذه بعض الأسماء المعروفة التي تزعمت العصابات أو القوات التي كانت تأتمر بأمر دمشق وفي بحث سريع عنهم نعرف بأن عرب الفضل مثل عرب الهيب وعرب الحمدون قبائل كانت عيش بين شمال فلسطين وجنوب سوريا معروف بأنها تعتمد الغزو كطريقة عيش وقد عانت عين إبل من عرب الهيب والحمدون والتعديات التي كانوا يقومون بها لأنهم كانوا ينزلون في المناطق المتاخمة

للحدود الجنوبية ولكن عرب الفضل كانت بلادهم بعيدة ومن هنا وعندما نتابع تاريخ جبل عامل ما قبل الهجمة العروبية نعرف بأن سكان هذه المنطقة من لبنان تميزوا عن هذه القبائل ومن هنا الفرق في التعاطي ونفهم موقف كامل بيك الأسعد الذي لم يكن موافقا للأنضواء تحت راية هؤلاء فقد دافع أجداده الوائليون عن هذه البلاد طويلا ولم يقبلوا أن يكونوا أتباعا لزعماء القبائل.

قبر الشهداء في عين إبل

ملحق رقم ٥

نشيد عين إبل:

حبذا قريتنا فخرنا بهجتنا
عزنا منيتنا ومهب الكرم

فلنكن نحن الشباب في حماها أسد غاب
في وئام ووثاب عند دفع النقـ

ويروي قريتي منبع الحرية
بالنفوس الحرة والابا والشمم

وبأم النور قد أمنت كل نكد
وهي فيها للأبد مشعل في علم

ومقر الشهداء من فدوها بالدماء
هكذا كل علاء اسه سفك الدم

فبعين ابل افخروا يا بنيها واكبـروا
ومعانيها انشـروا فـوق كـل الأمـم

فلتعش أوطانـنـا وليصن لـبـنـانـنـا
أرزة استقلالـنـا فـي أعالي القـمـم

الاحتفال السنوي بمناسبة الخامس من ايار والمستمر حتى اليوم في عين إبل

ملحق رقم ٦

وقائع من يوم الخامس من ايار ١٩٢٠

مأخوذة من كتاب مداميك وهي ملخص عن محفوظات بالذاكرة العينبلية للأحداث كانت تروى من قبل كبار السن وقد دونت بطريقة قصصية كي لا تنسى

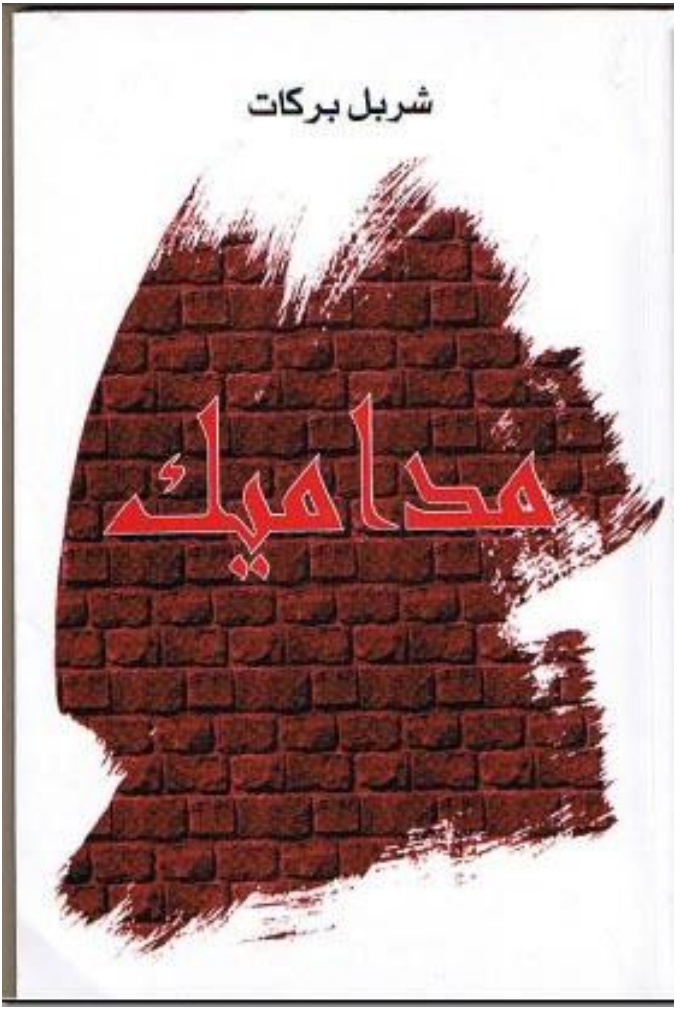

غلاف مداميك الطبعة العربية الأولى نشر سنة ١٩٩٩

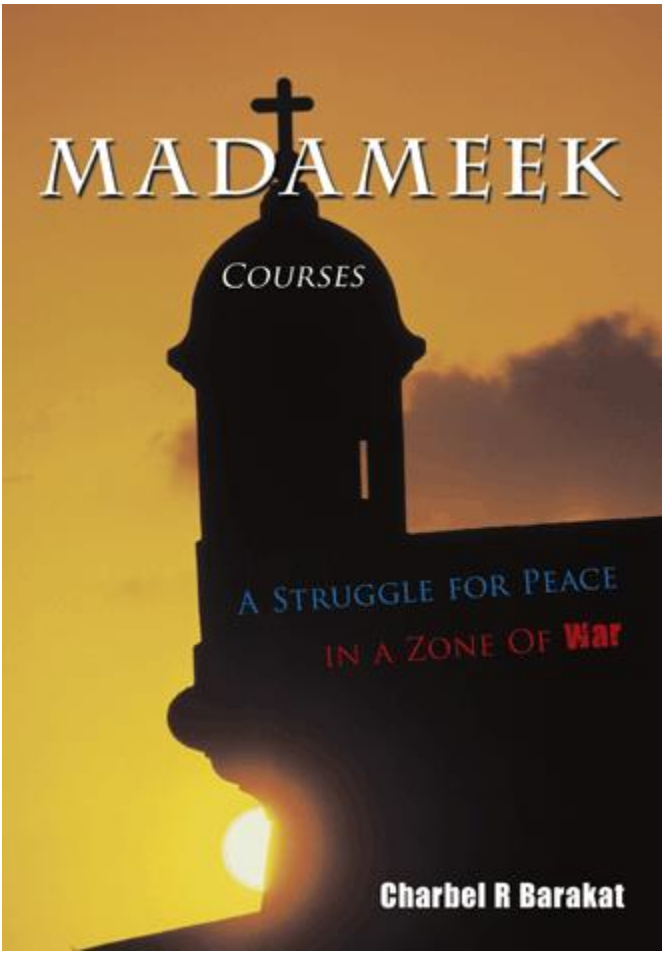

غلاف الطبعة الانكليزية لكتاب مداميك الذي نشر سنة ٢٠١١

كانت عين إبل قد أثبتت وجودها في المنطقة وزادت أراضيها وكثر انتاجها، وفي أوائل القرن هاجر بعض بنيها إلى الولايات المتحدة وجمعوا ثروات عادوا بها إلى القرية وعمروا الدور التي يزينها القرميد الأحمر، وكان هذا النوع من البناء بالقرميد قد وصل إلى لبنان مع الحملة الفرنسية في ١٨٦٠ التي عمرت أول منزل في دير القمر وسقفته بالقرميد، ومنذ ذلك الحين أصبح القرميد دلالة على الثراء، لأنه مستورد من مرسيليا، ومن استطاع أن يعمر بقرميد فمن المؤكد أنه صاحب ثروة، وهكذا فقد أصبح في عين إبل ستة أو سبعة بيوت قرميدية ما عدا الكنائس والدير ما أعطاها طابع الغنى زيادة على وسع الأراضي ووفرة الانتاج و"أسطول" الجمال التي كانت تغادرها قبل كل فجر محملة من خيراتها إلى مدن الساحل بخاصة صور، ما زاد من حسد الحاسدين وشهوة الطامعين، ولكن دونما تطاول، فقد حصنت بالرجال الأشداء المتيقظين الذين عرفوا أن "الرزق السايب يعلم الناس الحرام" فكان أفهمهم وأخلصهم أشدهم حرصا على صون البلد من اي تطاول، وكان وجوه البلدة نواطيرها وقد كان لهم علاقة بالجيرة ضبطتها أصول ولياقات تعلقت بمفاهيم وتقاليد كل فئة. فالمنطقة فيها شعوب ومذاهب ولكل منها مفاهيمه وتراثه، ولو التقى الكل على بعضها، فالمتاولة، وقد كان عددهم مقبولا أكثر من غيرهم، كانت لهم مفاهيمهم التي تختلف عن مفاهيم البدو العائشين في المضارب والذين لهم قيم وطرق عيش تخصهم، وبينما ساكن الروم، الحرفيون بأغلبهم، المتاولة في كثير من الأماكن والقرى وتفاعلوا معهم في بعض المجالات، انفرد الموارنة في قرى تختلف حسب المشارب في العادات واللهجة وبعض التصرف.

وفي العهد العثماني لم يكن المتاولة من أصحاب الحقوق في الدولة وكانوا لا يختلفون شأنا عن المسيحيين، وكان لهم بعض المعارك مع دروز الجبل من جهة ومع قبائل فلسطين من جهة ثانية، أما المسيحيون في المنطقة فقد كانوا منهمكين بتأمين قوتهم. وفي ما بعد الحملة المصرية حاول "حمد البيك" زعيم الشيعة يومها استرضاء الدولة العثمانية بأن هاجم ببعض فرسانه فلول المصريين في رميش... ثم

جاءت مشاكل الجبل الطائفية فلم تتاثر بها المنطقة بسبب عدم وجود منافسة على الزعامة، ولكنها لم تخل من تحرش هنا ومشكل هناك. ولكن بعيد دستور ١٩٠٨ الذي ساوى بين مواطني الدولة العثمانية بدا وكأن الأمور تسير نحو الأفضل فتحمس المسيحيون إذ شعروا بأنه ستصبح لهم حقوق حتى في الانتساب إلى الجيش العثماني والاشتراك بالسلطة بشكل فعلي، فانتسب البعض إلى جمعية "الاتحاد والترقي" وفتحوا "ناديا" في عين إبل أصبح فيما بعد يتدخل بكل شؤون البلدة، وعمت مرحلة من التامل بمستقبل نير. لكن ما أن بدأت الحرب العالمية الأولى حتى ظهر الوجه الآخر من المساواة، فقد بدأ الطلب على العسكر، وكان أن وصل الأمر إلى أخذ كل الرجال من عمر ثمانية عشر عاما إلى عمر خمسين، مما أفرغ البلاد إلا من النساء والأطفال والعجائز، وجعل من هرب من الخدمة، فارا طول الوقت، فبارت الأراضي وقل الانتاج ووصلت الحالة إلى المجاعة وزاد الأمر سوءً، تشديد الأتراك وكثرة زياراتهم لتلك القرى، حيث كانوا يقيمون على حساب هؤلاء المساكين، آكلين شاربين مع أعلاف خيولهم، وزيادة

على كل هذا ما كانوا يفرضون من "خوات" على الناس. ولكن لكل شيء نهاية ولكل ظلم ختام، فقد خسرت تركيا الحرب ولحقت بالأمبراطوريات البائدة وذهب معها عصر القهر والتبعية إلى غير رجعة، وقد كان الرابحون، لأول مرة منذ قرون، دول يختلف مذهبها ومعتقدها عن تلك التي حكمت البلاد منذ خروج الفرنج، لا بل كانت الدول التي قهرت تركيا تنادي بحرية الشعوب وتقرير مصيرها وبحقها في الاستقلال والعيش بسلام.

كان هذا كثير على من خرج لتوه من ظلم الأتراك، فلم يحلم الناس بهكذا قدر من التحرر وعمت الأفراح بوجه خاص عند المسيحيين الذين عرفوا معنى التمييز والظلم، وعرفوا معنى أن يزايد بعض الحكام على الاسلام، ليستدرج عطف المسلمين فيسامحونه على أخطائه الكثيرة، بالتهجم على غير المسلمين وفرض شروط قاسية

تذكر دوما بالشروط العمرية، فيتدخل السلطان بلون الحذاء[٢٥]، ويمنع القاضي دفن الميت، وتفرض ضريبة "ظلم[٢٦]" مجاهرة...

لكن أهالي عين إبل لم يعرفوا ما كان ينتظرهم بالرغم من الفرحة الكبرى، فسياسات الدول، حتى المنادية بحرية الشعوب وتقرير مصيرها وبالمساواة والأخوة، لها في إدارة البلاد ما لا يتصوره عقل أولئك الفلاحين. فبين فرنسا وبريطانيا، المتحالفتين، تضارب في المصالح، فقد كانتا اتفقتا على تقسيم الشرق إلى مناطق نفوذ، وكانت بريطانيا وعدت "فيصل" ابن "الشريف حسين"، "شريف مكة"، بمملكة عربية يحكمها، وككل الخارجين من صحاري العرب، حلم فيصل ب"الشام" جزءً من مملكته، فتعدى على نفوذ الفرنسيين حسب الاتفاقية (سايكس- بيكو) ولم يكن له شأن معهم. من جانب آخر قد يكون البريطانيون تركوا الأمور تجري على ما هي، عله يستطيع "تشليح" فرنسا بعض نفوذها دون أن يمسوا هم بالاتفاق. لكنه لم يعرف ما ينتظره فتمادى وجماعته وطالب بلبنان جزءً من دولته. ودار أزلامه يقنعون المسلمين بطلب حكمه، على أساس حرية الشعوب بتقرير المصير. فقبل به بعض الشيعة عندنا على أنه من "آل البيت"، ودارت العرائض ودرت الاستفتاءات مدة سنتين وكانت موجهة إلى مؤتمر الصلح. وكان المسيحيون هنا يناضلون في سبيل الانضمام إلى لبنان، فجماعتهم هناك وأصولهم هناك وعلاقاتهم هناك وبطركهم أيضا، ولم ينسوا بعد ظلم المسلمين ومعاملة "أهل الذمة"، فكان الطلب والاصرار على الانضمام إلى لبنان. فقامت حركات تهدد وتتوعد من يرفض القبول بحكم فيصل، وهي طريقة لم ينسها بعد من حكم من قبل تركيا، وكان الفرنسيون يحبذون أن يغلط فيصل ويحاول فرض الأمور بالقوة، لأنه كان قد دخل الشام عنوة مع الانكليز ولم ينفذ هؤلاء تعهدهم

---

[٢٥] البراءة الممنوحة من السلطان محمود للمرحوم عبود بحري الدمشقي "يسمح له فيها بلبس حزاء أصفر" المرجع: تاريخ المهاجرة السورية للخوري باسيليوس خرباوي كاهن رعية القديس نقولا الأرثوذكسية السورية في بروكلن نيويورك صفحة ٧٥٢ طبع مطبعة بدران نيويورك سنة ١٩١٣

[٢٦] يقول مرسوم السلطان سليمان "تقسم غلال الزيتون تحت امه فالنصف لصاحبه وربع حق وربع ظلم" تاريخ الأزمنة، الدويهي صفحة ٢٥٩ – تاريخ الموارنة، بطرس ضو الجزء الرابع صفحة ١٤٣

للفرنسيين باخراجه فانتظروا الفرصة لطرد ذلك البدوي الذي يتجرأ على اللعب مع الكبار...

بدأت اللعبة تكبر وزاد جماعة فيصل من تهديداتهم وتعنتهم، فطلب المسيحيون الحماية من الفرنسيين فأعطوهم بضع بنادق لم يكن لهم خبرة في استعمالها، ولكنها أعطتهم ثقة بالنفس، فتصدت عين إبل للعصابات ووقفت بوجههم ومنعتهم من التعدي على المسيحيين في جوارها، وقد كانت من أكبر قرى المسيحيين في جبل عامل وكان رجالها أشداء يقويهم إيمانهم بالله وبحقهم في الدفاع عن النفس فصمدوا مدة تسعة أشهر بوجه عدة عصابات ومجموعات. وقيل فيما بعد أن من بين هذه العصابات والمجموعات من كان يعمل مع المخابرات الفرنسية. فقامت هذه العصابات بمهاجمة كل القرى والمزارع الصغيرة، من جنوب الليطاني وحتى الحدود، فتهجر أهلها، وأحرق بعضها، وفرغ كثير منها، إنما في عين إبل لم يستطيعوا فرض خوة أو سرقة رأس ماعز أو التعدي على أحد، لا بل تحدى أهالي البلدة عصابة "صادق حمزة"، يوم أرسل يطلب تسليم أسلحة ودفع خوة، بالقدوم إليهم، وهاجموه في شلعبون، فهرب وتوعد، وعاودوا التصدي له، يوم طلب من دبل تسليم أسلحة، فكان جوابهم أن شباب عين إبل هم الذين ينتظرونك في دبل أيضا، إن كنت تنوي النزال، فلم يجرؤ على المواجهة هذه المرة[٢٧]...

في صباح ذلك اليوم، وكان أهل البلدة، كعادتهم، قد وزعوا على كل الاتجاهات، فرقا صغيرة للاستطلاع والحماية، يختلف عدد عناصرها حسب الموقع وأهميته، بينما ذهب الباقون إلى أعمالهم مطمئنين. وكان "أبو نصري"، يومها ابن تسعة عشر عاما، من بين مجموعة "الدوير". كانت الساعة قد قاربت على التاسعة عندما سمعوا إشارة إطلاق نار من فرقة "شلعبون"، فأخذوا "استحكامات" حول التل في جل "بيت أبو عبدالله"، وكان كبيرهم "أبو سالم". وقد كان "أبو سالم" من القبضايات المشهود لهم، فهو كان هاجر إلى الولايات المتحدة، وجمع ثروة في ظروف لم تخلو من المغامرة والشجاعة. ثم عاد إلى

[٢٧] من حديث مسجل مع المرحوم فؤاد الخوري صادر حول أحداث ١٩٢٠

البلدة واشترى أراضي جمعها بالبدل والسخاء لتصبح مزرعة متكاملة، وعمر بيتا ومخزنا وبدأ بتجارة مع مدن الساحل والداخل في حوران والمنخفضات الفلسطينية. وقد كان في غدواته يبيت في نابلس ويصبح في الشام ويمسي في صيدا ليعود إلى عين إبل محملا بما لذ وطاب. وكان "أبو سالم" حلو المعشر لكنه رصين وشديد في الأوقات الحرجة، ولذا فقد اختار موقعا يعتبر خطرا لبعده عن القرية، ولكنه كبير الأهمية لأنه يمنع التسلل من الناحية الشمالية. فعندما سمع إشارة "شلعبون" وزع الشباب على أماكنهم وحاول أن يستطلع الأمر...

كان هناك بالفعل تجمعا ما تجاه كونين وقد تقدم بعض العناصر إلى ما فوق وادي "عين سدير" فأطلقت مجموعة المراقبة في "شلعبون" النار باتجاههم كإنذار لعدم التقدم أكثر وبنفس الوقت كإشارة لبقية المجموعات المدافعة للتنبه لما يحدث. فلم يكن عندهم وسيلة اتصال، ولم يكن لديهم مركز قيادة وتوجيه عسكري يعرف أن يقوم الأمور، فيعطي الأوامر، بالصمود هنا والانكفاء هناك، بالهجوم في نقطة معينة أو الثبات والمدافعة في نقطة أخرى، بدفع الاحتياط لدعم موقع ما، أو لتقييم الوضع بشكل شامل وتأمين إستمرارية المعركة لوجستيا وعملانيا... كان الدفاع عن القرية إحدى "العونات"، والقتال شكل من إظهار قوة قد تخيف العدو فيهرب أو يتراجع، كما حدث في تحدي "صادق حمرة". لكن الأمر أختلف هذه المرة، ولم يقتصر على "صادق حمزة" وعصابته، بل تجمعت كل العصابات وتقرر القضاء على مقاومة القرية. وقد شاركت عصابات من أطراف الجولان و"عرب الفاعور" الذين ينزلون ب"الحولة" وغيرهم. وكان التجمع على بركة كونين شحذت فيه النفوس وتوزعت الأدوار، وفي الوقت نفسه أطلت فرقا من الجهة الشرقية، ثم ظهرت فرقا من الغرب بينهم "عرب الشعب"...

أحس "ابو نصري" ورفاقه بالخطر هذه المرة لأن "أبو سالم" كان واجما على غير عادة ولم "يتمخطر" أمامهم بل زحف بين الصخور عائدا إلى متراسه، وعندما حاول "أبو ابراهيم" رفع راسه زجره وصرخ به ثم اشار إلى عدم إطلاق النار بدون أمر منه وعدم التحرك أو ترك أي شخص لمكانه، لكن "أبو ابراهيم"، وكانت له دالة على

"أبو سالم" كونه يفلح له الملكيات، اعتبر أن الأمر مبالغ به وحاول النهوض بعد بعض الوقت لقضاء حاجة، وكان "أبو سالم" في الجهة المقابلة يراقب مجموعة تحاول الاقتراب باتجاههم، وكان ينتقل بين رجاله يعين لكل منهم هدفه ساعة يعطي الأمر، فقد أرادها ضربة قاضية لهذه المجموعة، لكن تحرك "أبو ابراهيم" الذي كان يضع "حطته" البيضاء على راسه كشف وجودهم وما كان من أحد المتسللين إلا أن فتح النار، عندها رد "أبو سالم" وتبعه كل على هدفه فأصيب ثلاثة من المهاجمين واحتمى الباقون بين الصخور عائدين من حيث أتوا وطلقات المجموعة تتبعهم. فرح الشباب وقويت معنوياتهم بهذه العملية، ولكن عنين "أبو ابراهيم" أعادهم إلى واقعهم، فقد كان أصيب بذلك الطلق الناري في خاصرته واتكأ على ساق شجرة واضعا يده على الجرح. قفز "أبو سالم" مستطلعا الأمر وإذا الجرح بليغ والنزف حاد، فتجهّم وجهه ونزع الحطة وحاول أن يربط بها الجرح. في هذه الأثناء كان الرصاص يلعلع من "ضهر العاصي" باتجاه "شلعبون" يجاوبه إطلاق نار كثيف من الجهة المقابلة فهم منه بأنه لم يبق أحد من مجموعة شلعبون التي كانت مهمتها الانذار عن اي تقدم ثم الانسحاب. حاول أبو سالم أن يرسل أبو ابراهيم إلى القرية فقد تعتني به الراهبة، وإذا كان مقدرا له أن يموت فلماذا يموت هنا بعيدا عن القرية، ولذا فقد كلّف "جرجس" بمرافقته للعودة ونبّهه أن يفتح عينيه جيدا فالأرض غير آمنة وألا يتعب ابو ابراهيم بل "يطول باله عليه"...

في هذه الأثناء كان "أبو صقر" وهو ابن السابعة عشر بين المجموعة التي تؤمن الدفاع عن البلدة من الشرق وكانوا يرابطون في "الضهور" وكان معهم "أبو يوسف" بذاته وقد كان زعيما بكل ما للكلمة من معنى، فهو البعيد النظر، المتزن، القوي الشخصية والعادل في أحكامه،حتى كان اصبح مضرب المثل في العدل والشمول في معرفة أمور الفلاجين وخلافاتهم، وكان شرعه مقبولا حتى على المتاولة والبدو. كان "أبو يوسف" يقدر أن يكون الهجوم، إذا حدث، من الجهة الشرقية لأنها أقرب إلى بنت جبيل وأسهل للتسلل. ومع أنها قليلة الشجر لكنها كثيرة الصخور حيث يمكن الاحتماء من الرصاص، لذلك فضل أن يكون هناك بقرب الشباب لكي يتجنب المعركة إذا أمكن أو يقودها إذا ما

فرضت عليهم، وكان لا يزال لديه أمل بتدخل "الأوادم" لتجنب المعركة فقد كان القاضي "محمد نجيب" انتقد تصرفات "المتهورين الذين لا يعرفون إلى إين يقودون الناس"، وقد سمع من البعض أن "البيك" غير راض عن أعمال هؤلاء الطارئين ولكنه لا يجرؤ على مجابتهم في موضوع كهذا فهو يعرف حده في مواجهة الموجات ذات المنحى الديني وقد كان الموضوع أخذ هذا المنحى. ولكن "أبو يوسف" لم يأخذ ذلك على محمل الجد لأنه كان يعرف قدرة البيك إذا ما اقتنع بأمر.

كانت المجموعة تحوي عددا أكبر من مجموعة "أبو سالم" فهنا لا مجال للتراجع وهذا هو خط الدفاع عن البلدة. وعندما فتحت النار في "ضهر العاصي" أرسل "أبو يوسف" أحد الشباب إلى هناك للتأكد مما يحدث خوفا من أن تكون عملية الهاء. كان "أبو صقر" ذلك الرسول وقد كتب فيما بعد عن ذلك اليوم في مذكراته بعد أن كان أصبح في الثلاثينات صديقا حميما ل"سلطان باشا الأطرش" زعيم دروز سوريا الذي قاد في ١٩٢٥ الثورة ضد الفرنسيين وقد تخاوى معه وسكن "السويدا" عاصمة "جبل الدروز" وعلّم فيها هو وغيره من أبناء عين إبل في تلك المرحلة. ذهب "أبو صقر" إلى ضهر العاصي ليستطلع الأمر وكان المكان جبهة حرب حقيقية. فقد انتشر الشباب خلف متاريسهم وصوبوا بنادقهم باتجاه شلعبون حيث كانوا يرون بين الحين والآخر خيالا يتحرك أو حصانا يجري فتطلق النار باتجاهه وكان "روكز" الموجه العسكري هناك كونه قد خدم في الجيش التركي وعاد بعد نهاية الحرب وهو الوحيد الذي مر بتجربة عسكرية سابقا، وقد اعتبر "ضهر العاصي" مهما لأنه يشرف على كل الجهات ومنه يمكن رؤية الشرق والشمال والغرب ويمكنه مساندة مجموعة "الدوير" أو "الضهور" على السواء.

كان "أيوب" رجلا منظورا بين جماعته وقد جعله ذلك، وإن لم يكن لديه خبرة روكز العسكرية، مركز ثقة المجموعة. لذلك عندما وصل "أبو صقر" كان هو من تحادث معه ليطمئن "أبو يوسف" عن الوضع. ولكن "أبو صقر" فهم منه أن الشباب يصرفون كثيرا من الذخيرة وقد كان "روكز" ألمح إلى ذلك ولكنه لم يرد أن "يكسر بخاطرهم" أو يقلل

من معنوياتهم، وقد كان عناصر مجموعة شلعبون الذين التحقوا في ضهر العاصي تحدثوا عن أعداد كبيرة تجمعت قرب بركة كونين، وأخبره أنهم صدوا مجموعة كانت تحاول التقدم من جهة شلعبون وقد منيت ببعض الاصابات ولكنه لا يعتقد أنها ستكون المحاولة الأخيرة، لأنه قد لاحظ زيادة في عدد الوافدين إلى بيدر "صف الهوا" من اتجاه كونين، فهو من موقعه يستطيع رؤية أطراف تلك البلدة، ولذا فقد كلف ابو صقر أن يكمل طريقه إلى "بيت شباط" حيث كان مركز التجمع والذخيرة وحيث كان من المفروض أن يكون المختار "أبو بركات" والخوارنة وبعض الوجهاء الذين كانوا يأملون أن يتدخل أحد لوقف التدهور مثل "البيك" أو بعض العقلاء أو حتى الفرنسيين، مع أنهم كانوا قد لاحظوا أن هؤلاء آخر من يتدخل، فلم يكن هناك حامية كبيرة في صور لا بل كان "دولابستيار[٢٨]" يجاهر بأنه يخاف العصابات ولذلك فهو يركب كل ليلة قاربا لينام في البحر كي لا يستطيع رجال العصابات اللحاق به فأين عظمة فرنسا كي يخاف ممثلها مجموعة كهؤلاء؟ أو أنها كانت تطيل لهم الحبل، وإلى أي مدى؟ وهذا كان يخيفهم، وقد طلب "ايوب" من ابوصقر أن يشرح الوضع ويستفهم عن موضوع الذخيرة التي كانت تشغل باله.

كانت الساعة قد قاربت على الثالثة عندما وصل أبو صقر إلى "بيت شباط" وكان علية بكل معنى الكلمة ففيه قبو أرضي كانت الذخائر موضوعة فيه ولم يكن تبقى منها إلا ثلاث صناديق فقد توزع منذ الصباح أكثر من عشرة صناديق على كل المجموعات المحيطة بالبلدة وقد كانوا صرفوا خلال الأشهر الماضية بين معارك وتدريبات وتهويل ما يقارب العشرة صناديق ولم يكن باستطاعتهم شراء رصاصة واحدة من المحيط ولا الوصول إلى صور بعد تكاثر العصابات وعملياتها حولهم. لذلك عندما صعد أبو صقر إلى الطابق الثاني حيث اجتمع المختار والآخرون وكلمهم عن الوضع كان تعليق "أبو بركات" المباشر:

[٢٨] دولا بيستيار كان ما يسمى الحاكم العسكري لمدينة صور وهو أعلى سلطة فرنسية في المنطقة

- الله يراف، ما بتخلصنا إلا عجيبة.

ثم استدار إلى خوري الحدادين قائلا:

- وين صاحبك البيك؟.. ما على بنى هوي ضد هالشي...

لم يجب الخوري بشيء، فصحيح كانت له علاقة صداقة بالبيك وكان يحترمه ولكنه لم يدع مرة معرفة ما بداخله، ثم دار الحديث حول الثبات بالمواقع حتى آخر رصاصة وسأل أحدهم عن وضع بقية الجبهات وعن مساعدة القرى الأخرى وهنا شدد "أبو بركات" على ضرورة أن يبقى باب "القبلي" مفتوحا وزاد "أن لا تنتظروا مساعدة من أحد فقد بدا واضحا أن المعركة معركتنا وقد فرضت علينا ولا يمكننا التراجع".

في هذا الجو القاتم والرصين الذي شهده ابو صقر في "العلية" بين كبار البلدة، وقد كان طلب إليه البقاء لينقل آخر الأخبار لأبو يوسف وجماعته وبخاصة في موضوع الذخيرة والثبات، إذا ب"حنا" يدخل مسرعا وقد أتى من ضهر العاصي، كان منظر "حنا" وهو يلهث أنفاسه مضحكا بعض الشيء، فقد ركض ليخبر بالجديد وينقل الأوامر لجماعته. كان الموضوع مهما جدا فقد ظهر بعض الخيالة رافعين الأعلام البيضاء فأمر "أيوب" أن يبقوا تحت النار ولكن دون أن يطلق عليهم إلا بأمره، وتقدموا إلى مسافة يمكن منها سماع نداءاتهم وأخبروا بأن "البيك" و"الأفندية" يرغبون بالصلح وقد أرسلوا يطلبون القدوم إلى عين إبل للتفاوض. كان "حنا" يخبر لاهثا والكل مشدوه وعندما وصل إلى البيك والأفندية إنشرح الجميع وأكثرهم خوري الحدادين الذي لم يكن قد قطع الأمل مرة ثم قال "أبو بركات":

- هي هيي العجيبة.. الله يكملها عخير وسلامة..

ثم اشار على "أبو صقر" ليعود إلى ضهر العاصي فيخبر الشباب بالموافقة على وقف النار وإعلام الرسل بالسماح لوفد البيك والأفندية بالدخول متى شاؤوا. فاعترض الخوري "يوسف" وكان صامتا حتى تلك اللحظة وقال لأبو بركات أنه يجدر بنا الحذر في هذا الشأن عله يوجد مكيدة. فقام الجميع يؤنبونه على هذا الشك في غير محله وبدأ كل

واحد يشرح نظريته بشأن التفاوض وأسبابه وتنطح من يدافع عن وقف القتال حتى أن خوري الحدادين الذي كان يعرف القرآن استشهد بآية منه تقول: "وإن جنحوا للسلم فاجنح له"، وكانت خلاصة الحديث ما اشار إليه ابو بركات في النهاية؛ "هل لدينا ما هو أفضل؟ فقد كدنا نفقد الذخيرة ونشكر الله لم يبلغ بعد عن أية إصابة حتى الآن وأعداد المهاجمين كبيرة فإن داهمنا الليل قد يصبح الدفاع أصعب، وقد يكونون فعلا خسروا في المعركة ويريدون، عن حسن نية أو عن خوف، إيجاد مخرج مشرف فاستقدموا البيك والأفندية لإجراء مصالحة، وقد يكون الفرنسيون يضغطون. ونحن أيضا نفضل الصلح، ولكن الحذر يبقى واجبا".

كان هذا الكلام يدور في العلية بينما غادر أبو صقر مسرعا باتجاه ضهر العاصي فهو يريد أن يوصل الخبر ويرى بعينيه ما يجري، لذلك طلب من "حنا" قبل أن يغادر أن يذهب هو إلى "الضهور" ليعلم "أبو يوسف" بالتطورات بعد أن يرتاح قليلا. وما أن وصل إلى ضهر العاصي حتى رأى الشباب مرتاحين والبسمة على وجوههم وقد ترك بعضهم مكانه وتجمعوا حول "أيوب"، أما "روكز" فقد ظل في مكانه وعينيه على الرسل الذين وقفوا على مسافة اربعماية متر تقريبا في اسفل التل ينتظرون الجواب وقد رفعوا الأعلام البيضاء وكان يرقد بجانبه "خيرالله" وهو يسدد سلاحه نحو حامل الراية الذي بدا وكأنه يعرفه من اللقاء الأول مع جماعة "صادق حمزة" وقد كان، على ما تصور "خيرالله"، هو الرسول الذي جاء من يارون يومها يحمل مطالب زعيم العصابة وقد رد خائبا، وكان "خيرالله" ينتظر أن يسمح له بأن يرديه فلا يعود يرى وجهه بعد اليوم، ولكن الأصول كانت تقضي بعدم التعرض لمن يرفعون الراية البيضاء، ولذا فقد بقي مصوبا سلاحه باتجاهه عله يغلط بحركة أو يتغير الموقف، ولكنه، في كل الحالات، كان يلتذ أن يراه تحت رحمته.

ما أن وصل أبو صقر وأخبر أيوب بالموافقة حتى صرخ بهم وأعلمهم بالأمر على أن يأتوا من نفس الاتجاه رافعين الرايات البيضاء، عندها استدار هؤلاء وعادوا أدراجهم مسرعين باتجاه شلعبون.

في هذه الأثناء كان "أبو ابراهيم" الذي اصيب في "الدوير" قد وصل إلى "العين" بعد جهد جهيد ولم يعد يقوى على السير فقد نزف كمية كبيرة من دمه وطلب إلى "جرجس" أن يساعده للوصول إلى الماء ويجلسه بقرب النبع ويكمل طريقه إلى القرية فيحضر دابة يحمله عليها، فطلعة العين صعبة جدا ولن يقوى وهو بهذه الحالة على الاستمرار، ولا خوف عليه هنا.

صعد "جرجس" إلى البلدة بعد أن أجلس أبو ابراهيم بقرب النبع وسقاه بعض الماء وعندما وصل إلى مفرق "الكسار" وقف ليأخذ نفسا ونظر باتجاه "الدبش" فإذا بمجموعة من المسلحين تظهر صوب "شجرة المكبرة" قرب حانين فأطلق عيارا ناريا باتجاههم وأكمل إلى البلدة وقد شغل باله أن تتقدم هذه المجموعة إلى "الدبش" فيصبح التحرك داخل البلدة خطرا لأنها مكشوفة من هذا الاتجاه.

في هذه الأثناء وصل "حنا" إلى "الضهور" وأخبر أبو يوسف ومجموعته عن طلب الصلح ففرح الجميع ولكن أبو يوسف لم يكن مرتاحا فطلب أن يبقى الكل في أماكنهم وذهب بنفسه إلى "العلية" للتأكد من الموضوع. كان أبو يوسف يفكر وهو بطريقه إلى العلية فيما إذا الأمور تسير بالشكل الصحيح، ولماذا اليوم وبعد هذا الهجوم يتدخل البيك ليفرض وقف النار؟ هل إن العصابات المهاجمة قد فقدت أحد كبارها في المعركة مثلا فأصبحت الآن أكثر طواعية؟ أم أن ضمير البيك قد تحرك في آخر لحظة وهو يحاول فرض نفسه من جديد؟ أم هل يمكن أن يكون الفرنسيون قد تدخلوا بشكل أو بآخر؟ لكن "البادري" كان قد أخبره سرا في آخر زيارة له أنه يخاف من لعبة السياسيين، ولا يفهم ماذا يريد الفرنسيون عمله... أم هل هناك خدعة؟ أم ماذا؟..

كانت الساعة قد قاربت الرابعة وبعد ساعتين تقريبا تغيب الشمس، وهذا أخاف أبو يوسف أكثر لأنه لو حدث شيء غير متوقع قبل المغيب يكون من الصعب جدا السيطرة على الوضع لكثرة العدد وبداية الليل حيث "تضيع الطاسة" فلا يعود بالامكان تأمين حماية الناس من التسلل خاصة بوجود هذه النجمعات التي تكلم عنها "حنا"، وبالرغم من أنه

أطل على الكنيسة الجديدة، التي كانوا يفتخرون بها، ورسم إشارة الصليب كعادته، لكنه لم يشعر بالطمأنينة ككل مرة، فلام ذاته على هذا التشاؤم وقلة الإيمان وتشدد وقال في نفسه "متل ما الله بريد".

كان أبو يوسف ذاهبا باتجاه العلية وفكره في المصير القاتم والأحداث الجارية أما قلبه فكان في مكان آخر بعيدا عن كل ذلك. فقد كانت "ام يوسف" حبلى في شهرها وهي على وشك الولادة وكانت، عندما غادر في الصباح، توجعت قليلا ولكنها لم ترد أن "تعتله الهم" وقالت له أنها إذا ما أحست بشيء سوف تذهب إلى غرفة الوقف التي في "الخلة" لتلد هناك. فإذا ما هوجمت البلدة لن يكون بالامكان تدبير خروجها بسرعة من البيت أما في "الخلة" هناك فقد يتمكن أحدهم من مساعدتها على الهرب اثناء الليل. كان يتساءل، خاصة بعد أن أطل على البلدة ولمح البيت، هل أنها ذهبت، ومن ترى رافقها؟ هل يمكن أن تكون جارتهم "شمى" برفقتها، أم هل تكون "لطيفة" التي تعرف بالتوليد معها؟ وأين الأولاد الصغار؟ وهل يمكن أن تكون "مريم" على قد الحمل فتعتني بهم؟ والكبار موزعون على المجموعات المدافعة؟ والصغيرة "حنة" و"موسى" هل سيتمكنان من السير كل هذه المسافة؟..

نزل أبو يوسف باتجاه البيت ليتأكد من الوضع ويعود، ما دام الجميع يتحدث عن الصلح، فلماذا يكون هو الوحيد الذي يحسب هذه الحسابات، ولكنه ما أن وصل إلى قرب المقبرة حتى التقى "جرجس" الذي رافق أبو ابراهيم من الدوير فأخبره عن الوضع هناك وعن حالة ابو ابراهيم والمجموعة التي رآها قرب شجرة المكبرة فأنبه على تركه لأبو ابراهيم بهذه الحالة وقال له تعال خذ "دابتي" وانزل أحضر المسكين ابو ابراهيم وخذه إلى الدير عل الراهبات يتمكن من مساعدته وأنا أتكفل بموضوع العناصر التي بقرب شجرة المكبرة. فدخلا إلى بيته وفك أبو يوسف الحمار ووضع عليه "الجلال"، ولكنه لم يجد أحدا في المنزل فارتاح باله قليلا وقال في نفسه إن الله أرسله من أجل ابو ابراهيم، وهم بالانصراف، لكن "زهير" بدأ يخور ويرفس، فتنبه أنه منذ الأمس بدون شرب ففكه ورفيقته "الصبحى" وأخرجهما إلى الدار ونشل سطلي ماء من البئر وضعهما في الجرن ووضع الخشبة على

باب الدار كي لا يخرجا، لأنه لم يرد الانتظار حتى يكملا شربهما ويعيدهما إلى الداخل وقد قاربت الشمس على المغيب فلن يؤثر بقاءهما في الخارج والصغار ليسوا بالبيت، ثم هب مسرعا باتجاه العلية شاكرا الله على أنه أتى إلى البيت.

أما في الدوير فقد كان الشباب بعد أن طردوا المتسللين في الصباح بقوا في وضع قتالي تحت اشراف أبو سالم وتحسنت معنوياتهم إذ توقف إطلاق النار في ضهر العاصي وكانوا رأوا الخيالة الذين حملوا الأعلام البضاء ومكوثهم حتى أخذ الخبر ثم عودتهم بدون اطلاق نار ما جعلهم يتصورون أن هناك نوعا من الاتفاق تم التوصل إليه، ولكنهم بعد مضي وقت قليل رأوا جموعا يتقدمهم فريق من الخيالة يتجهون إلى البلدة ثم بدأت عناصر بالتحرك باتجاههم من جهة الطيري فاحتاروا بأمرهم أيطلقون النار باتجاه هذه العناصر أم يتركونهم يقتربون؟ وهل أن هناك أمرا ما يدعو إلى فتح أبواب البلدة لغرباء في المساء لدخولها، وخاصة بعد معارك النهار؟ ولكن لماذا لم تفتح النار من ضهر العاصي؟..

كان أبو سالم شديد الحذر في شأن هذه المجموعة وقد قرر ألا يترك أحدا يدخل من جهته فإذا كان هناك إتفاق فدخول القرية يكون من جهة ضهر العاصي. ولذلك قرر أن يبقي جماعته على أهبة الاستعداد ولكنه منع إطلاق النار إلا بأمره وأشار على "بركات" أن يذهب إلى العلية ويعرف الوضع عن قرب. وهكذا فقد توجه "بركات" إلى العلية باسرع طريق وعرف بالوضع المستجد فنزل إلى البيت ليرى ما يمكن عمله في حال قدم البيك وجماعته، فهذه مناسبة يجب أن يحسب لها حساب، فكل الشباب موزعون على جهات البلدة، و"نظيرة" زوجته قد ولدت حديثا إبنها "إدوار"، ولن تستطيع شقيقته "وردة" وحدها أن تحل محلها في البيت، لذلك عليه أن ينبه أحدا ليدعو بعض النسوة للاستعداد، في حال الاضطرار، لتحضير وليمة للبيك ورجاله، وأمكنة للمبيت مع الأعلاف اللازمة لخيولهم. فكر بشقيقته "وديعة" التي كانت "على قد الحمل" لولا أنها لا تزال ممسكة عن المشاركة باي احتفال بعد غياب زوجها الذي لم تعرف عنه شيئا حتى الآن، فقد كان جمالا وعنده من الأموال ما جعله "يشتري نفسه" بدفعه "البدل" كي لا يذهب إلى

العسكر في حرب الأربعتعش، ولكن العسكر التركي، بالرغم من ذلك، عاد وقبض عليه واقتاده إلى الخدمة، ولم تسمع عنه أي خبر منذ أكثر من أربع سنوات، وقد أقسمت ألا تشارك بفرح حتى يعود أو تعرف مصيره. فتوجه إلى البيت وأرسل "الحجة لوسيا" لتدعو بعض النسوة لأعداد اللازم ثم ارسل ولده "رزق الله"، وكان ابن ثماني سنوات، ليفتش عن "الناطور" إذا كان في البلدة ليأتي إليه حالا.

كانت "نظيرة" تحمّص التراب لتضعه تحت الطفل كي لا "يتسمط" وكان جمر الموقدة يكفي لهذا الموضوع دون الحاجة لتشعيل الحطب، بينما جلست "إميلي" إبنتها بقرب السرير تهزه. فنادى على شقيقته "وردة" وتشاور معها بالنسبة للتحضيرات فاشارت فورا على "إميلي" لتأخذ اخوتها الصغار وتنزلهم مع أخيها "حنا" إلى بيت جدهم "العبد" للتخفيف من العجق في البيت، وبدأت هي باجراء الترتيبات اللازمة بينما نزل "بركات" ليتفقد القبو. ففي هذه الفترة من السنة، ولم تجمع الغلال بعد، يجب أن يعرف ما عنده بالضبط، سيما وأن أحدا من ألأجراء لم يكن في البيت. فإذا ب"حميدي" المهرة تصهل فور تقدمه، فارتاب أن لا يكون قد سقاها أحد ودخل فأخرجها إلى الدار لتشرب، ولكنها كانت تريد الترحيب به وليس الشرب. ثم عاد يتفقد الخلايا فوجد "خير كتير" فلا يزال هناك شعير يكفي لمئة راس خيل وهناك برميلان من الطحين ولا تزال خلية من القمح ممتلئة حتى بابها. كان الثوران والبقرات مربوطة في أماكنها ولا تزال في معالفها بعض التبن ما يكفيها للمساء. ويظهر بأن "موسى" قد جاء قبله فسقاها وأطعمها، فأطمأن وعاد ليرى إذا كان "رزق الله" قد رجع. في هذه الأثناء حدث إطلاق نار كثيف من الجهة الشمالية فدخل إلى "نظيرة" وقال لها:

- الله يسترنا... إذا صار شي أهربي صوب الدير.

وعاد مسرعا باتجاه ضهر العاصي.

أما في ضهر العاصي فقد كان الشباب رأوا القوم يقتربون وقد تقدمهم عدد كبير من الخيالة لم يرافق البيك أو غيره مرة مثله، وكانت الفرقة الأولى تتقدم حاملة الأعلام البيضاء، وكان بعض الشباب، عندما شاهدوهم نزلوا إلى أسفل التل للأستقبال والتأكد من حسن النوايا. وكان

"عبدالله" مسؤولا عن هذه المجموعة، وما أن وصل الخيالة إلى علوه حتى بادره أحدهم بطلق ناري قتله على الفور، عندها أطلق "فؤاد" النار وتبعه المرافقين الآخرين الذين احتموا بالصخور، فأصيب عنصر أخر منهم بينما سقط أحد الخيالة من جانب المهاجمين وفتحت النار من قبل المشاة الذين كانوا يرافقونهم والذين تمركزوا أيضا خلف الصخور والسناسل بمواجهة ضهر العاصي، فما كان من العناصر المتمركزة هناك إلا أن ردت بنار غزيرة فسقط عدد من الخيالة في الصفوف الأمامية. ولكن الكثرة مكنت بعضهم من الوصول إلى ضهر العاصي، فهجم أبو صقر على فرس أحدهم وأوقعه أرضا وقتله، وأردى أيوب مهاجما آخر، لكن كثرتهم أربكت المدافعين فأصيب أبو صقر في كتفه وسقط.

أما مجموعة الدوير فعندما شعرت بالمكيدة فتحت النار واصابت عددا من المهاجمين في جهتها وهرب قسم آخر، ثم أخذت بمساندة ضهر العاصي، فتضايق المهاجمون، ووصلت نجدة من البلدة عندما سمع تجدد النار فتمكنت المجموعة من الثبات في موقعها ونقل الجرحى إلى العلية. لكن المهاجمين كانوا قد ثبتوا في اسفل التل حيث قتل "عبدالله" ثم أعادوا الكرة محتمين بنيران مساندة كانت تطلق من مرتفع شلعبون حيث تمركزت عناصر منهم.

كانت الجموع تتدفق إلى ساحة المعركة؛ خيالة ومشاة لم يتصور أحد عددا كهذا ولو اجتمعت كل العصابات وحتى القرى المجاورة، فمن إين كل هذه الجموع؟..

كان أيوب يتسأل عن العمل وهو فقد حتى الآن ثلاثة عناصر وكثير من الذخيرة، وبالرغم من أن المهاجمين تكبدوا خسائر كبيرة إلا أنهم لا يزالون مصممين على الهجوم بذلك العدد الجرار الذي جمعوه، فراى الموقف ميؤوسا منه سيما وأنه قد علم بكمية الذخيرة المتبقية في العلية، فقرر على الفور تجميع عناصره باتجاه البلدة ومحاولة توقيف المهاجمين ما أمكن حتى يتسنى للآخرين فتح "باب القبلي" لتهريب الأطفال والنساء.

أما في الدوير فقد راى أبو سالم الأعداد المتجمعة وقدر، كما أيوب، أن لا مجال للصمود بدون دعم خارجي، ولم يخطر بباله أن يأتي أحد لمساندتهم من أية جهة، فالقرى الصغيرة المحيطة كانت تعتمد عليهم للدفاع عنها ولن تجرؤ، وهم في هذه الحالة، على القدوم لمساعدتهم وقد عرفوا بالتأكيد حجم الهجوم، لذلك قرر أن لا يتلهى بعد بالدفاع عن الدوير بل يذهب ومجموعته للمساعدة بفتح باب الهرب جنوبا باتجاه فلسطين حيث يسيطر الأنكليز ولم تحدث مشاكل حتى الآن.

أما أبو يوسف فقد كان وصل إلى العلية عندما فتحت النيران في ضهر العاصي وخال البعض أنها لاستقبال "البيك"، ولكن أزيز الرصاص كان يسمع فوق رؤوسهم في العلية ويسقط أحيانا في البلدة، فوجمت الوجوه، وتأكد الجميع من المكيدة، وخبط الخوري يوسف على الطاولة وقال بحدة موجها حديثه لخوري الحدادين:

- هيدي شيمن يا بونا، ما تقلي بيك ولا أفندي، كلن متل بعض، وقت بتوقع الحزة بترجعلهن الغريزية وبصيروا جماعة غزو لا دين ولا ضمير...

وقبل أن يدور الجدل قطع "أبو بركات" الحديث وقال لأبو يوسف:

- خذ بعض الرجال وأعمل على فتح "باب القبلي".

وللخوري يوسف:

- وانت يامحترم روح على الدير خلي الكل يتحضروا للهرب فور تأمين الطريق.

ثم دعى أحد الشباب ليأخذ ما تبقى من الذخيرة لأيوب وجماعته وقال:

- قل له ليصمد ما أمكن ولكن ليعمل على عدم خسارة أحد من الشباب الذين معه فسوف نخلي القرية...

التقى بركات أبو يوسف وثلاثة من الشبان فطلب منه أبو يوسف مرافقتهم لتأمين باب القبلي وتوجهوا إلى "المجدول" عن طريق الدير وكان الخوري يوسف يتبعهم ورأوا بعض عناصر مجموعة "شرتا"

فنادوهم وسالوهم عن مجموعتهم، وكان جوابهم أنهم عادوا لمساندة الجهة الغربية وبقي منهم عناصر يأمنون إتجاه "كفربرعم"، فطلبوا منهم الرجوع إلى "شرتا" وتأمين طريق "وادي يارون" لأنه قد يستعمل للتطويق ثم أكملوا باتجاه "المحفرة"...

كان أبو سالم وقد رافقه "أبو نصري" و"أبو ريمون" و"أبو أنطوان" قد تركوا الدوير واتجهوا إلى العين، وقبل أن يصلوا إلى مفرق "الدبش" فوجئوا بعناصر تقترب من صوب "شجرة المكبرة" فأمر أبو سالم بأخذ "استحكامات" وانتظار اقترابهم بعض الشيء. وبعد قليل وعلى اشارة منه فتحت النار فإذا بهم يصيبون أربعة أشخاص ويضطر الباقون الذين لم يكونوا يتوقعون وجود أحد في تلك المنطقة إلى الهرب باتجاه "حانين". فتابعوهم بالنار حتى أمنوا ابتعادهم ولم يبقوا بمرمى نيرانهم فأكملوا طريقهم إلى القرية فقد كان أبو سالم يريد الاطمئنان إلى طريق لتهريب النساء والأطفال ما دامت المعركة كما يراها ميؤوسا منها. وقرب "العين" وجدوا "أبو ابراهيم" مكوما وقد لفظ أنفاسه...

أما في "الضهور" فقد كانت المجموعة هناك تقدمت إلى منطقة "قبر النصراني" لتساند ضهر العاصي من الشرق وقد ردت مجموعة من العناصر المتقدمة في ذلك الاتجاه. وكان حنا قد لاحظ بعض العناصر في اتجاه "الحمرا" ففتح النار وأصاب أحدهم لكنه لم يعد يراهم فاعتقد أنهم عادوا أدراجهم، لكنهم كانوا قد داروا حول "القدام" محتمين بصخوره ثم نزلوا إلى "حامل بو" فتقدم نفر منهم دون أن يلحظه هؤلاء إلى كروم الزيتون، حيث استطاعوا الوصول إلى أطراف القرية من جهة الدير.

وكان قبو "بو بركات"، الذي باعه ل"بو اسرائيل" اليهودي الذي سكن البلدة مع عائلته بعد أن انتقل بو بركات إلى بيته الجديد بقرب الكنيسة، يقع هناك قرب الدير. فقد كان بعض العائلات اليهودية القادمة من أوروبا إلى "ارض الميعاد" يمر أحيانا ببنت جبيل وعين إبل كمحطة استراحة قبل الوصول إلى "صفد"، حيث يوجد مقر لجمعيات اسرائيلية كانت تساعدهم على الاستقرار والعمل. وكان العينبليون

يرون بهؤلاء المهاجرين صورة لأجدادهم، الذين استقروا في هذه الأرض قادمين من شمال لبنان فعمروها بجهدهم وإيمانهم، ولإخوتهم الذين هاجروا إلى امريكا حبا بالمغامرة والاثراء في المرحلة الأولى أو هربا من الأتراك في الحرب الكبرى، وعاد بعضهم وساهم في تطوير البلدة وزيادة عمرانها وهم أدخلوا أفكارا جديدة وتحدثوا عن اختراعات لم يكن يحلم بها أحد قبلا. ف"حنا بشارة" أصبح مثلا لأنه أصر أنه يستطيع أن "يعمر الفوقى قبل التحتا[٢٩]" وقد فعل... ولذا فقد كانوا يساعدون هؤلاء المهاجرين ويرون فيهم نسمة خير قد تسهم في تطور المنطقة بالأفكار الجديدة والدم الجديد في هذه المرحلة التي بدا فيها العالم أكثر انفتاحا.

كان "بو اسرائيل" بالفعل أحد هؤلاء النشيطين فهو اشترى البيت وصنع خمارة يسحب فيها العرق والسبيرتو. وكانت عين إبل بحاجة لمن يشتري كمية من انتاج العنب، فمواسمها كانت تضطر إلى بيعها في صور أو عكا، ومنذ أن قدم "الاسرائيليون" هؤلاء بدأوا يشترون بعضا من عنبهم ولم يكونوا يفرقون كالآخرين بين انتاج قرية وأخرى فكل السكان مختلفون عنهم والمهم الجودة والسعر. ثم اصبح بو اسرائيل يشتري كميات كبيرة من العنب فيبيع لجماعته ويصنع الخمور ويسحب السبيرتو وينقله أيضا إلى صفد، وقد كان خبيرا بالخمور حيث كان والده أقام فيما مضى باحدى دول أوروبا حيث يقدرون الخمور الجيدة وهناك تعلم المهنة وأتقنها. وقد أصبح بعد أن سكن القرية حوالي عشر سنوات معروفا من الجميع. وتربى أولاده بين أطفال القرية وتصادقوا وتحابوا دونما تمييز أو تفرقة. فقد تعود أبناء عين إبل على استقبال عائلات منفردة لتسكن وتعيش فيما بينهم وكان الجميع يتأقلم بسرعة ويصبح مواطنا. فالقانون واضح والقرية مستقرة والجميع يتنافس على النشاط والانتاج وليس على الخمول والكسل وتناقل الأخبار والحسد الذي يولد المشاكل، خاصة لساكن جديد، لا يعرفه أحد. وهكذا فقد اندمج بو اسرائيل وعائلته في مجتمع

[٢٩] كان حنا بشارة من المهاجرين العائدين من الولايات المتحدة وقد اصر أنه يمكنه أن يبني الطابق الأول قبل الطابق الأرضي ما لم يستوعبه الأهالي يومها

عين إبل وعرف قبو "بو بركات" فيما بعد ب"بيت بو اسرائيل" ثم بعد أن غادره بقي مدة يعرف ب"بيت اليهودي".

كان بو اسرائيل قد أخذ عائلته قبل شهر إلى صفد فأحد اقاربه، وكان صديقا للحاكم الانكليزي هناك، نصحه ألا يبقى في المنطقة لأنها معرضة للمشاكل، فلماذا لا يأتي إلى صفد في هذه المرحلة. وكان قبل أن غادر مر على بو بركات وأخبره بنصيحة الانكليزي. وكانت زوجته تعاني من مشكلة صحية أضطرته إلى أخذها بشكل مستمر إلى طبيب من جماعته كان تخرج من جامعة في "فيينا" ويسكن قرب صفد. وكان بو اسرائيل قد صادف مرة عصابة "أدهم خنجر" على طريق "وادي فارة" واضطر للاختباء منهم، ولكنهم أخذوا حماره الذي كان يسوقه وما عليه... وهكذا فقد كان بيت بو اسرائيل خاليا يومها فدخل أول هؤلاء المتسللين إلى البيت وبدأ بالنهب. وكان أحد أصحابه ينتظر في الخارج لتأمين حمايته، بينما لم يزل باقي عناصر المجموعة متأخرين قليلا.

دخل الخوري إلى الدير وإذا بعدد كبير من الأهالي هناك وقد ركع الكبار يصلون مرددين خلف الراهبة أبيات "مسبحة الوردية"، بينما صمت الصغار محتمين بأمهاتهم. وإذ شعروا بوجوده توقفت الصلاة. فقال الخوري أن الوقت قد كان لاخلاء القرية ويجب أن يتم ذلك بسرعة ولكن في الوقت نفسه بانتباه، كونه قد يكون هناك متسللون. وعليهم الاتجاه إلى طريق كفر برعم في الأراضي الفلسطينية. خرجت "جميلة" على راس النسوة حيث كانت تريد الرحيل منذ الصباح ولكنها كانت تخجل من الآخريات، أما وقد طلب الخوري ذلك فهي أول من يرحل. وقد حملت طفليها بيديها وأمرت ابنتها "تريز" أن تقود أخويها الصغيرين وتتبعها. وفور خروجها شاهدت ذلك المتسلل خلف حائط بيت بو اسرائيل فحاولت العودة لتخبر الآخرين ولكنها لاحظت ابو سالم وجماعته قادمين من الجهة الثانية فصرخت به:

- يا بو سالم صاروا هون ببيت بو اسرائيل...

ودخلت قبل أن تتبعها رصاصة كادت أن تصيب ابنها على يدها، فسجدت وشكرت العذراء مريم وتحسست طفلها الآخر...

قفز بو سالم فوق جدار التصوينة وقد وضع "الشبرية" بين اسنانه، فلم يرد أن يستعمل الرصاص لأنه شحيح وقد بقي عليهم مسافة لتأمين خروج الأهالي، وإذا به وجها لوجه أمام ذلك المتسلل. فصرخ به فارتعد وقذف بشبريته إلى صدره فسقط على الفور فتقدم بو سالم وركع فوقه ليستعيد شبريته وإذا بآخر يخرج من الباب حاملا فرشة بيديه ومعلقا البندقية في كتفه، فاستدار أبو سالم وطعنه بالشبرية من فوق الفرشة، الذي حاول أن يحتمي بها لأنه لم يستطع تناول بندقيته، ورفعه فوق راسه وقذف به إلى جانب رفيقه، ولحقه الشباب فطوقوا البيت وفتشوه ثم توجهوا إلى المجدول للبحث عن المتسللين الآخرين الذين كانوا قد فروا من حيث أتوا.

تابع ابو سالم ورفاقه التفتيش حتى مجدول "ناصيف" حيث ظهرت قبالتهم عناصر شرتا فلوحوا لهم للانتباه لجهة "حامل بو" وترك أبو سالم أبو ريمون وأبو نصري في تلك الجهة وعاد مع أبو أنطوان إلى الدير لاخراج الموجودين فيه...

أما في ضهر العاصي فقد كان المهاجمون تمكنوا من الوصول إلى التل بالرغم من الاصابات في صفوفهم وقد بقي ايوب وجماعته يناورون ويعيقون تقدمهم ولكنهم بدأوا يخففون من إطلاق النار ما سمح للمهاجمين بالتقدم. وعندما وصل ايوب إلى بيت شباط لم يكن هناك أحد في الطوابق العالية فاعتقد أن الجميع قد تمكن من الانسحاب فأمر رفاقه بنصب كمائن بين البيوت واستعمال السكاكين بدل البنادق والابقاء على الذخيرة ما أمكن.

وصل المهاجمون إلى العلية ودخلوا إليها بعد إطلاق نار غزير. ولما لم يلقوا جوابا اضرموا النار في قرميدها، وهم كانوا خسروا الكثيرين من عناصرهم في هذا الهجوم حتى الآن، وإذ رأوا النيران تلتهم العلية، أحد رموز الفخر في عين إبل، سرت بهم نشوة النصر.

كان أيوب يكمن في أعلى "المراح" وقد وصلته عناصر من جهة الضهور، فوجه بعضهم إلى الكنيسة الجديدة وأطراف البيادر بينما ذهب "يعقوب"، الذي كان من مهرة الرماة، صوب البيت في أعلى "العين". وقد كان أرسل "يوسف" ابنه ليؤمن رحيل العائلة إلى بيت

أحد أصدقائه في "أبو سنان" وأقسم أنه لن يغادر قبل أن يذيقهم طعم رصاصه ويعلمهم عدم الاستهانة برجال عين إبل. وكانت لا تزال لديه في المنزل كمية من الرصاص ليكمل مهمته.

وصل يعقوب ودخل فتفقد المنزل وأخرج بعض الرصاص وصعد إلى أعلى التصوينة فوضع علبتين في مكمن يمكنه استعماله لرد أي محاولة للدخول من الباب الخارجي، وعاد باتجاه الخلف فوضع برميلا يستطيع إذا ما وقف فوقه أن يرى ما وراء المنزل. وكان منزله يطل على الوادي فوق العين ويشرف على كامل الجهة الغربية. وكان يعقوب صاحب ثروة وقد كان والده إشترى مزرعة الصالحاني بكاملها، والتي تزيد مساحتها على اثنا عشر مليون متر مربع، ثم باع نصفها ل"بيت نور" وهم من سكان صور.. وبعد أن صمم يعقوب خطة لدفاعه "مترس" في مكمنه فوق المدخل...

وفي بيت جدها "عبد الأحد" كانت "اميلي" قد سمعت ما يجري من اطلاق نار فقررت أن تعود مع اخوتها إلى البيت ولكنها رات مجموعة من النسوة يركضن وقلن لها أن الجميع سوف يخلون القرية فدخلت وأخذت ربطة خبز من "اللجن" ولفتها بزنارها وحملت أخوها "ادمون" على ظهرها بينما أمسك حنا أخاه "فيكتور" بيده وتبعه "شكرالله" وخرجوا من البيت وجدهم ينادي عليهم، فلم يريدهم أن يرحلوا وحدهم ولم يرَ الحالة تستأهل رحيله هو وقد طعن بالسن، ولكن اميلي كانت مصممة ولم ترد البقاء فحاول أن يؤخرها وقال لها أن تنتظر فقط ليريها أين خبأ الذهب فلن يرحل هو حتى ولو دخل الغرباء إلى البلدة وقد يموت "فتعالي لأريكي أين دفنت الذهب"، وقد كان صاحب ثروة بالفعل والكل يعرف، فلم تأبه باقواله وتابعت باتجاه الدير، ولكن "شكرالله" لم يرد أن يكمل الطريق معهم وأراد العودة للبيت فأجبره حنا على متابعتهم حتى وصلوا إلى بيت "بو كرم" فاستدار راكضا نحو البيت وتابعوا هم طريقهم باتجاه الدير.

في هذه الأثناء كانت "نظيرة" قد جمعت بعض الأغراض لطفلها وصرتها بشرشف ووضعتها على راسها وحملته، وقد لفته بشرشف آخر، وهمت بالانطلاق، فسمعت صوت الرصاص قرب الكنيسة،

فركضت باتجاه "الجنينة" لأن الطريق أكثر أمانا من هناك، ولكنها خافت على الأولاد فأرسلت "وردة" ابنة عمها لتحضرهم من بيت والدها، وعندما وصلت هي إلى طرف الجنينة الجنوبي تذكرت "رزق الله" واحتارت فهو لم يكن في البيت عندما ذهب إخوته وماذا لو رجع ولم يجد أحدا، فوقفت تفكر ما العمل؟ ثم سمعت حركة قرب البيت، فقررت العودة، ولكن أزيز الرصاص كان يقترب، فوضعت "أدوار" على الأرض وجنبه صرة الثياب وعادت باتجاه البيت. فسمعت صهيل "حميدي"، ثم وقع أقدامها وهي تجري. فاقتربت، فلمحت وكأن "رزق الله" راكبا فوقها مع ولد آخر خلفه ممسكا به وقد غابا وراء السطوح. ولكنها شاهدت رجلا يتبعهما راكضا ومهولا وهو يصوب بندقيته. فصرخت به فاستدار باتجاهها ليتبين مصدر الصوت، وتوقف عن متابعته لهما...

وكان رزق الله، عندما ذهب للتفتيش عن الناطور في الحي العتيق، راى بعض النسوة يركضن، ثم بدأ يسمع الرصاص يقترب. وعندما وصل إلى قرب المقبرة، رأى والده وآخرين يهرولون من صوب العلية فتوقف يراقبهم. ثم بدأ يرى كثيرين يركضون. وكأنهم هاربون والبعض يحمل أولاده أو بعض الأمتعة. فقرر العودة إلى البيت، وبوصوله، وجد "حميدي" في الدار، فحاول إدخالها إلى القبو، ولكنه رأى جارتهم "تقلا" تخرج من بيتها مسرعة وقد سبقتها إبنتها "حنة" وهي تجر بيدها أخاها الصغير "يوسف" بينما حملت إبنتها الصغرى "زكية" صرة وتبعتهما، وإذا بأخيه "شكرالله" قادما وهو يبكي، فسأله لماذا يبكي ومن أين أتى فأخبره شكر الله أن بقية إخوته قد ذهبوا إلى الدير وهو لا يريد الذهاب معهم، فأشار عليه أن يصعد إلى البيت ريثما يدخل هو المهرة خوفا من أن يسرقها أحد، وكان يعرف مدى حب والده لهذه المهرة التي أحضرها صغيرة من "الخليل" وكان يعتز بأنها "مسلسلة" أصيلة، ولكن شكر الله بقي واقفا ولم يتحرك من مكانه، فقد كان يراقب الدخان المنبعث من العلية، ثم رأى أحدهم يسقط من شباك بيت "نعمة" وقد اصيب على ما يبدو، وعندما هم رزق الله بادخال المهرة، شاهد أحدهم يطلق النار على جارتهم "تقلا" فتسقط في الدار ويتابع أولادها الركض باتجاه بيت عمه "ابراهيم"، فتسمر مكانه وقد

رأى لأول مرة مشهدا مشابها، ثم تحركت "حميدي"، فالتفت، وإذا بالرجل يتقدم باتجاههم وقد رأه يجر المهرة، فنهره أن يتركها، فما كان منه، وقد عرف أنه سوف يسرقها لا محالة وقد يؤذيها، إلا أن ركب فوقها وأركب شقيقه خلفه، فوصل الرجل الغريب وحاول الامساك بالرسن، إلا أن حميدي صهلت ووقفت على رجليها وهاجمته والأولاد على ظهرها، فهرب من أمامها خوفا وانطلقت مسرعة إلى ما وراء السطوح. وهكذا رأتهم الوالدة وذلك الرجل يتبعهم، وقد عرف قيمة المهرة، عله يستطيع وقفهم والاستيلاء عليها. وعندما استدار على صوت "نظيرة" وافلتت منه فرصة الحصول على المهرة، لحق بها للانتقام فولت هاربة، فاطلق النار باتجاهها مهددا شاتما، فلم تستطع التوقف لأخذ طفلها أو الصرة. ولم تستعد أنفاسها إلا وقد وصلت إلى المجدول، لتجد ابنها حنا وإميلي والصغار، وهي ترتجف خوفا ودموعها ملء عينيها. ثم رأت رزق الله وشكر الله ينزلان باتجاههم على ظهر حميدي، فارتاحت قليلا، لأنها وجدت عائلتها، ولكنها أدركت أنها فقدت طفلها الصغير فماذا سيحل به؟..

ما أن استعادت نظيرة أنفاسها وأدركت الموقف حتى اركبت "إدمون" خلف إخوته على المهرة وتركت اميلي تسير مع حنا وفيكتور بجانبها، وقالت لحنا واميلي تابعوا الطريق مع اخوتكم إلى المحفرة فقد تجدون والدكم أو من تكملون معهم الى كفر برعم أما أنا فسأعود لأحضر أخاكم الصغير. وعادت مسرعة ويدها على قلبها وهي تحسب ألف حساب، ولكنها ما أن وصلت إلى قرب الدير حتى التقت ب"مرون" جارتهم قادمة فقالت لها:

- هيك بتعمل الناس".. نسيتي إبنك ورحتي؟.. منيح اللي مرقت أنا من الجنينة وشفتو، والا كان ضل هونيك أو إجالو حدا أخدو، يا الله خديه... واشكري ربك...

فتناولته من يدها وضمته إلى صدرها وأجهشت بالبكاء، ولم تستطع أن تخبر "مرون" ما جرى لها، وبقيت تتمتم شاكرة لها وللعذراء على هذا الصنيع. ثم تابعت مع جارتها طريقهم إلى المحفرة لتلتحق بالعائلة...

أما أبو يوسف الذي كان أمن طريق كفر برعم وأبقى عددا من الشباب لحماية الأهالي الهاربين فقد عاد ليتفقد زوجته والأولاد، فإذا ب"ابو جبران" ينادي عليه، وقد كان وصل إلى المحفرة، قائلا بأن إم يوسف بخير وهي لا تزال في غرفة الوقف مع الأولاد الصغار وجارتهم "شمى". فأرسل "بطرس" ليحضرها ويوصلها إلى الجش ويهتم بإخوته ريثما يتأكد هو من خروج الجميع...

كان "جرجس"، عندما تأكد من موت أبو ابراهيم حزن وبكاه. ثم قرر أن يثأر له. فصعد إلى الشحار ومترس هناك منتظرا قدوم أحد من المهاجمين من جهة الغرب، وقد رأى أبو سالم والمجموعة عندما كمنوا وأطلقوا النار عند مفرق الدبش ومن ثم أكملوا باتجاه البلدة فلم يجرؤ على اظهار نفسه لأبو سالم خوفا من التأنيب لتركه أبو ابراهيم يموت قرب العين، وظل في مكمنه. وكان قد لف "رسن" الدابة وأطلقها، فذهبت باتجاه الكسار، وعندما وصل بطرس في المساء إلى غرفة الوقف في الخلة ليحضر أمه وإخوته، سمع حركة قرب الغرفة، فظن أن هناك متسللا وحاول إطلاق النار، ولكنه إقترب ليجد دابتهم وقد وقفت ترعى قرب المكان، فشكر الله لأنه كان يفكر بأمه وكيف ستستطيع السير معهم حتى كفر برعم وهي بهذه الحالة. ثم دخل وأخرجهم فاركب والدته و"حنة" و"موسى" على الدابة، وسار بهم. وكانت شقيقته "سارة" قد ذهبت مع بيت عمها "مخول" قبلهم، أما "مريم" فقد كانت مع الصبايا في بيت "أبو الياس". ولم يحمل هم "مسعود" لأنه كان ذهب مع صديقه "البحري" وراء العنزات منذ الصباح إلى جهة "بسبسة" فلا خطر عليه في تلك الجهة، وقد يكون التحق بمجموعة من الهاربين...

في هذا الوقت كان ابو صقر الذي نزل من ضهر العاصي محملا وقد نزف حتى فقد الوعي، يستلقي في القبو بين "رفقة" و"يوسف" الأعمى وقد كانا الوحيدين اللذين بقيا هناك بعد انسحاب المدافعين. وكانا قد سحبا أبو صقر إلى القبو لأنه لا يزال فاقد الوعي. وكانت رفقة ترطب راسه بخرقة تغسلها من حين إلى آخر بسطل ماء كانت قد تمكنت من تعبئته من البئر قبل نزولها. وكانت صلاتهما وتضرعاتهما تتلاحق كلما سمعا أحدا يقترب من باب القبو. وبعد

حوالي الساعة من نزولهما فتح أبو صقر عينيه فشكرا الله على بقائه حيا ثم سأل أين هو فقالا له أنه في قبو العلية وأن الجماعة قد تمكنوا من الدخول وإشعال النيران. فجلس في مكانه وتحسس جرحه وقد كان ربط بشدة فبدا بوضع جيد فسأل عن سلاحه وكانت رفقة قد سحبته معها للدفاع عن النفس في حال حاول أحدهم الدخول إلى القبو، فوجده محشوا وقد كان لا يزال متزنرا بجناده وفيه ما يقارب عشرين خرطوشة، فقال لهما يجب علينا الرحيل وسوف آخذكما معي لأنهم عاجلا أم آجلا سوف يدخلون إلى القبو فلم نموت دون المحاولة؟ فقال يوسف الأعمى:

- لقد اصبحت شيخا وفقدت نظري منذ زمن طويل ولا حاجة لي بعد ولن أندم إذا ما مت الآن وقد أعيق سبيلكما فتسهلا ولا تحسبا لي اي حساب.

فابت رفقة وقالت أنها لا تستطيع الخروج ولا الركض وسوف تبقى مع يوسف مهما جرى "أما أنت فالله يسهل أمرك فقد يكون لك حاجة في مكان آخر إذا ما قدر لك النجاة".

وقف ابو صقر واستند على سلاحه ثم اقترب من الباب واستطاع أن يرى من شق بقرب الحائط وعلى ضوء النار المشتعلة رجالا ونساء يرمون أمتعة بالنار وسط أهازيج و"زلاغيط" وينقلون اشياء أخرى بايديهم، فاستغل التهاءهم بالنهب وفتح الباب وخرج محتميا بالحائط، وما أن وصل قرب الحاكورة حتى تسلق السلسال وأصبح في الظلام، ولم يرى إلا أولئك المنهمكين بالسرقة والنهب فأطلق النار على أحدهم فوقع من الطابق الثاني وسط النيران وصرخ صراخا شديدا فهرب الباقون وصوت النساء يلعلع:

- رجعت النصارى... رجعوا... أهربوا... أهربوا...

وتمكن أبو صقر من التوجه إلى منطقة "البخينق" وهي منطقة حرجية كثيفة ومنها باتجاه الجنوب متنقلا بين الأحراج، أما رفقة ويوسف فقد تمكنا من الخروج بعد هروب الذين كانوا في العلية وتابعا السير إلى خارج البلدة محتمين بالظلمة.

كان "ابو روفائيل" من وجهاء البلدة الذين يشاركون في كل مشورة وقرار، لا بل كان أحد المخاتير في مرحلة ما، وكان من الحازمين في قرارهم وقد بقيت له عدة صداقات مع الجيرة و"مونة" على الكثيرين فالقبضايات كانوا ينزلون عنده في كثير من الأحيان، ولم يجرؤ أحد مرة على التعدي على قطعانه أو أجرائه، فوهرة "أبو سعيد" شقيقه قد عمت المنطقة منذ خمسين سنة. وقد كان هو كريما في استقبال الضيوف و"دعيسة" الليل. وكان "روفائيل" ولده البكر قد ناهز العشرين في أول شبابه وقد حمل السلاح مثل كل الشباب للدفاع عن القرية. أما "أبو سعيد" فلم يشارك في القتال بل كان اقسم ألا يطلق رصاصة بعد أن رفض اقتراحه قبل ستة اشهر بقيادة مجموعة من شباب البلدة والتوجه إلى عقر دار "صادق حمزة" والقضاء عليه وإراحة الناس من شر أمثاله. ولكن التخوف من التعدي على الناس في قراهم، لأنه يعطيهم حافزا للاجتماع والمهاجمة، وراء عدم الموافقة على اقتراح "أبو سعيد" الذي اعتبر ذلك جبنا وتخاذلا. وعندما نُعت بالتهور لم يقبل تلك الأهانة فاقسم على ألا يشارك في الدفاع عن البلدة حتى ولو هوجمت. لذلك كان قد غادر القرية قبل عدة ايام من الهجوم ولم يعرف أحد أين كان في ذلك النهار...

كان روفائيل في الجهة الشرقية عند بدء الهجوم ولم يعرف إذا كانت والدته وأخوته قد غادروا المنزل أم لا، ولذا عندما وصل المهاجمون إلى العلية قرر أن ينزل إلى البيت للتأكد من وضع العائلة، فوالده سيكون منشغلا بأمور الناس أكثر من أمر بيته، ولما كانت الشمس قد غابت وأسدل الليل ستاره وصل إلى البيت وإذا ببعض المسلحين قد سبقوه من جهة العين، وقد لمح أحدهم على الدرج فنهره وما كان من رفيقه الذي كان يحتمي بحائط "الصيرة" إلا أن بادره بطلق ناري أرداه على الفور، فوقع على المدخل مضرجا بدمه. وبعد قليل وصل والده الذي كان قد عرف أن العائلة خرجت من المنزل وتوجهت "ماري" ووالدتها مع الصغار إلى الجنوب ورافقتهم "يوسفية". ولكنه لم يتأكد إذا كانوا قد أخذوا "بولس" الصغير معهم، فقد كان عند بيت جده كما قالت له جارتهم "ندى"، لذا فقد أراد التوجه إلى المنزل للتأكد من وجوده أو رحيله. وهكذا عندما وصل إلى هناك كان أول ما شاهد

جثة "روفائيل"، وما أن رآه، وقد غطى دمه الأرض ووقع على وجهه وسلاحه لا يزال بيده، حتى صعق وانكب عليه يحركه ويحاول أن يجد فيه بعض نفس ولكن دون جدوى، فقام كالمجنون يصرخ بأعلى صوته:

- يا خونة يا مجرمون قتلتم ولدي... أقتلوني...

وسمع حركة قرب البير فركض باتجاهها فإذا به أحد المهاجمين فانقض عليه غير آبه يسلاحه وأمسك ب"خناقه" محاولا خنقه لكن أحد رفاقه وصل فاطلق عليه عدة طلقات وأصابه بكتفه وفخذه وظهره ولكنه لم يترك رقبة الأول حتى لفظ أنفاسه ثم استدار إلى جثة ولده وقال:

- أخذت بتارك يا روفائيل... وهلق صار فيي موت...

وانحنى على جثته وأسلم الروح...

كانت "نفجي" وبعض النسوة في بيت "أبو الياس" في الجهة المقابلة لبيت "الحاج" وقد راين ما جرى فهرعن باتجاه كرم الدير، وقد كانت رصاصة أصابت ابهامها فلفت يدها بمنديل كانت تحمله وربطتها جيدا لوقف النزيف وهرولت مع النسوة إلى خارج البلدة...

في هذه الأثناء كان "يعقوب" لا يزال يربض في متراسه منتظرا فإذا بحركة المهاجمين تقترب وقد دار النهب في منازل مجاورة ولكنه لم يطلق النار إلا عندما تأكد من محاولة أحدهم فتح الباب الخارجي لداره، فصوب سلاحه وأرداه بطلق واحد. ثم قدم رفاقه على صرخته فاصاب ثلاثة منهم قبل أن يعرفوا مصدر النار وتراجع الباقون. ولم يعد أحد يجرؤ على التقدم باتجاه داره...

كان "مارون"، ابن الخوري "انطانس"، صاحب ثروة وشأن في البلدة، فقد كان منظورا بين الناس وكان بيته أحد البيوت المفتوحة، وقد كان ولده "الياس" هاجر إلى أميركا وعاد وزاد على ثروة أبيه، وكانت أيضا ل"مارون" صداقات في كل المنطقة، وكان لأبيه الخوري "انطانس" معارف واسعة وتاريخ في العلاقات زمن الأتراك.

فلم يرد "مارون" أن يترك البيت، واتكل أنه أصبح شيخا طاعنا ولن يجرؤ أحد على التعرض له. وكانت العائلة قد رحلت ولم يبق سوى شقيقته "مجيدي" التي تكبره سنا. وكانت تربطه أخوة قديمة مع إحدى العائلات الكبرى في الجوار، فظن أنه لن يتعرض للأذى ولازم بيته. ثم حضر صديقه "محمود" الذي كان يدعوه أخا، فاستقبله وتودد إليه "محمود" وطمأنه بأنه لن يمس، واستنطقه عن موضع المال ليحفظه له من الرعاع. فما كان من مارون إلا أن أحضر له صرة من الليرات الذهبية كان يخبئها في المنزل، وعندها قال محمود لولده "عقيل"، الذي كان يرافقه:

- نيّح عمك وعمتك يا ابني...

فما كان من "عقيل" إلا أن أطلق النار على الشيخ فأرداه في داره وشقيقته العجوز بقربه...

ظل أبو يوسف وبعض الشباب في جوار المحفرة بينما كان أبو سالم وفرقته قد التحقوا بعناصر "شرتا" لقطع الطريق الشرقية ومنع التسلل من هناك حتى تأمين خروج الجميع وعندما وصلت نظيرة وأولادها إلى المحفرة سألت عن زوجها فقيل لها إنه قد رافق فرقة "بسبسة" وقد تجده في طريقها عند "السوباط". وعندما وصل "بطرس" ووالدته والصغار إلى "تين الميدان" ونزلوا باتجاه "الرباع"، تنفس أبو يوسف الصعداء خاصة بعد أن علم بأن زوجته لم تضع بعد وأنها وجدت ما تركبه في رحلتها الطويلة هذه، فقال في نفسه؛ بأن الله لا يزال يحن علينا في أقسى الظروف. ولكنه ، وهو البعيد النظر، بدأ "يعتل هم" الأيام القادمة فلم يكن يملك ذهبا مثل البعض لكنه مكفي الحاجات وبيته ممتلئ. ولكن في مثل هذه الظروف لم يكن من السهل نقل هذه الحاجات. وفكر بأن الأصدقاء في الجش وصفد وغيرها من قرى فلسطين المجاورة سوف يستقبلونهم، ولكن ماذا لو طالت الحالة؟ وهناك أشياء لا بد أن يحتاج المرء فيها إلى مال، ويصعب عليه أن "يمد يده لأحد"، ومن كان لديه بعض المال من أبناء البلدة سوف يكون هو بحاجته في هذه الأثناء. وبينما هو يفكر إذا بجارهم "الأخ" يسأل عنه ليخبره بأنه رأى فدانه قرب "عين طربنين". وكان "زهير"

و"صبحى" بقيا بالدار بعد أن شربا وقد ذهب أبو يوسف فرقدا هناك، ثم عندما بدا الرصاص يقترب جفل زهير فنطح الخشبة التي كانت في باب الدار وأوقعها وولى هاربا ورفيقته الصبحى تتبعه إلى أن وصلا إلى خارج البلدة حيث توقفا قرب "عين طربنين"، فنزل أبو يوسف إلى العين واقتادهما وقد فكر أنه في اسوأ الأحوال سوف يبيعهما ما قد يساهم في بعض مصاريف التهجير إذا طال، ثم عاد ينتظر بعض الهاربين قبل أن يكمل طريقه إلى فلسطين...

في تلك الأثناء كانت فلول الهاربين تتجمع في وادي كفر برعم وكان أبو بركات بعد أن نزل من العلية وتفقد البيت ولم يجد أحدا، نزل إلى بيت "عبد الأحد" ليستفهم عن نظيرة الأولاد، فقال له عبد الأحد الذي كان بقي وحيدا أن الأولاد كانوا عنده وذهبوا باتجاه الدير فنصحه ابو بركات بالرحيل معه فلم يرض وقال له إذهب أنت وابحث عن الأولاد أما أنا فمن سيفتش علي هنا وماذا يريدون من رجل عجوز مثلي. فتركه وانطلق لأن همه كان أن يعرف ما حل بالأولاد فابنه بركات كان مع المقاتلين ومن سيهتم بعائلته؟.. وعندما وصل إلى المحفرة التقى بأخيه أبو يوسف فطمأنه بأنهم قطعوا باتجاه كفر برعم وأصبحوا في امان، عندها ارتاح باله قليلا فوقف مع أبو يوسف والشباب وسأل عن بقية أولاد البلدة وهل يعتقد بأن كثيرين ظلوا فيها وهل عرف من قتل ومن جرح؟..

كانت هذه التساؤلات هاجسه الأكبر، فكيف ستتحمل قرية صغيرة مثل هذه الكارثة، وقد بدا واضحا أن الهم الأساسي للمهاجمين كان القتل والنهب، فهل سيقضى على أحلام هذا الشعب؟ وهل سنقتلع من هنا؟ وأين سنذهب؟ وما هو المصير؟ وكيف وصل الحال بنا إلى هنا؟..

كانت هذه هموم أبو بركات الذي كان يرى البلدة تصبح "زهرة بلاد البشارة"، ومركز إشعاع ومعرفة، وصاحبة جاه وعز، وحاضرة بكل معنى الكلمة. فهل سيقضى على أحلام الأجيال القادمة؟ وعلى كل الجهد الذي قامت به سواعد ابنائها منذ مئات السنين؟ وما هو الوطن إذا لم يكن طمأنينة واستقرار؟

بعد أن تأكد أبو يوسف وابو بركات أن كل من يستطيع الهرب قد فعل وأنه لم يعد من داع للبقاء هناك أرسلوا إلى أبو سالم الذي كان لا يزال يرابط في شرتا مع فرقته، أن ينسحبوا، وتوجه الجميع إلى كفر برعم، وقد أخذوا بطريقهم مجموعة "السوباط" التي كان التحق بها ايضا عددا من المقاتلين بينهم من تبقى من مجموعة أيوب التي كانت قاتلت قتالا مشرفا خاصة في داخل البلدة وبعد دخول الغرباء إليها وقد استعملوا في عدة مرات خناجرهم والسكاكين حتى أنه لم يخل زاروب من إحدى الجثث. وكان أيوب الذي رابط أخيرا على سطح الكنيسة قد قفز من الدرج الجنوبي للسطح، بعد أن استعمل كل ذخيرته، وسقط وسط مجموعة من المهاجمين الذين ذهلوا من هبوطه بينهم، وقد تمكن وسط ذهولهم من الهرب، واضطر لاستعمال خنجره بعد ذلك...

عندما اسدل الليل ستاره على عين إبل، وكانت البلدة اصبحت تعج بالغزاة، ولم يزل هناك بعض المقاومين الفرديين ومن لم يتمكن من الخروج، حاول البعض العودة لأخذ ما كان يخبئ، مثل "العبدوش" الذي كان خبأ كيسا من الليرات العثملية في المعلف، وعندما رجع وجد المعلف منبوشا وقد سرق الذهب، ولكنه كان وضع تنكة صغيرة في طاقة عالية بين خشب السقف لم ينتبهوا لها فاسقطها وأخذ ما فيها، لسد حاجة العائلة في التهجير، فقد كانت جماله سرقت ونهب البيت بما فيه، ولكنه لم يكن قد اشتعل بعد...

بعد أن ثقل الظلام لم يبقَ في البلدة إلا بعض العجزة أو الذين قرروا البقاء حتى الاستشهاد، وكان يعقوب لم يزل يرابط في داره، وقد خف ضجيج المعركة، واقتصرت الحركة على الغزاة الذين لا يزالون يطوفون بمجموعات صغيرة، وعلى بعض الأهالي الذين يحاولون العودة خلسة للتفتيش عن قريب لا يزال في البلدة. وكان "خليل" يرافق والده فهو ومع أنه لم يبلغ التاسعة من العمر، إلا أنه كان تعلم من والده الرماية وركب الخيل، وعندما رحلت أمه، اختبأ في برميل الطحين حتى فقدت الأمل بالعثور عليه واعتقدت بأنه رحل من بيت عمه قبلهم، وبقي مختبئا حتى عودة أبيه من القتال عندئذ خرج ولكن الوالد أنبه على عدم مرافقته لأمه ثم قال:

- جهز بندقيتك، وقد كان اشترى له بندقية فرنسية من صور في أول السنة كهدية لأنه كان أصبح ماهرا في استعمالها، وأكمل، لن أغادر قبل أن ياتي صديقي "حمد" وإذا ما حدث لي اي مكروه لا تبقى هنا ولا تحاول الظهور بل انطلق فورا والحق والدتك في "ابو سنان"...

وكان "حمد" هذا صديقا ل"يعقوب" وقد سبق وأظهرا صداقتهما ومساندتهما الواحد للآخر في عدة مناسبات. وكان يعقوب في قرارة نفسه يريد أن يتاكد هل أن هذه الصداقة يمكن أن تستمر أم لا؟ فهذا الوضع هو المحك، والقضية اليوم بين جماعته وجماعة حمد، وهو سوف يدافع عن حقه وبيته، فماذا سيكون وضع صديقه في هذه الحالة؟ هل سيتفهم وضعه ويقف موقفا مشرفا؟ أم أنه سوف يلتحق بجماعته وينسى ما بينهما وتصبح الغريزة الجماعية هي المحرك الأساسي لكل اعماله؟ وهل سيستطيع مواجهته أم ماذا؟..

كانت هذه الأفكار تدور في راسه وتدفعه إلى الصمود أكثر من التعنت في الدفاع عن بيته، وهو ليس اهم من حياته، ولا عن قريته، وقد كادت تفرغ من سكانها والبقاء فيها يعتبر انتحارا.

وفي ساعة متأخرة سمع وقع حوافر خيل صاعدة على الطريق من جهة العين، وهذه الطريق تمر تحت متراسه، فانتظر ليرى من يكون هؤلاء القادمون، وبعد أن اصبحوا قرب بيت "بو مطر" توقفت الحركة ثم سمع صوتا يناديه:

- يا "بو يوسف"...

فعرف به صوت صديقه حمد فتنفس الصعداء ثم قال:

- يا هلا بك...

ونزل من مكمنه ففتح الباب الخارجي، وكان صاحبه قد وصل وترجل، فتعانقا ودخل حمد، ولكنه لم يسمح لأحد من مرافقيه بالدخول إلى الدار وانتظروا في الخارج ولم يترجلوا، وقال حمد:

- جيت لأخدك وين ما بدك تروح... على صور، أو لعندي.

فأجاب يعقوب:

- جينتك عزيزي يا "بو علي" وبتمون، بس كنت بفضل ضل ببيتي...

فأجاب حمد "أن الأيام قاسية على الجميع وأننا دخلنا في تيار لا نعرف اين سيأخذنا" وأنه لم يعد يؤمن "أننا من يتحكم بالأمور"، ولكن المهم أنه جاء خصيصا ليرافقه ليلا، لأنه نفسه لا يستطيع مخالفة التيار. فاعتذر يعقوب عن مرافقته. وكانت همهمة في الخارج بين مرافقي حمد، فقد كانوا رأوا الجثث التي لم يجرؤ أحد على سحبها بعد، ثم دخل أحدهم ونادى على حمد، فخرج وتحادث معهم وقد رفع صوته، وسمعه يعقوب في الداخل يقول:

- إذا حدا بيتعرضلو كأنو تعرضلي... ما برضى أبدا...

ففهم يعقوب مجرى الحديث وخرج إلى باب الدار وقال لحمد:

- له يا بوعلي... لا تعيط عالشباب... هيدي بارودتي بقدملك ياها، خدا، انت بتعرف إني ما كنت بسلم سلاحي لحدا وأنا طيب، بس معك بعتبر حقي وصلني... جينتك أهم من كل اللي صار...

فأخذ حمد بندقية صديقه وفهم مقصده في عدم احراجه أمام رجاله، وقال له:

- اعتبرها أمانة يا بويوسف...
- ثم ركب حصانه وانطلق وجماعته يتبعونه.

وكان خليل يختبئ على "السدة" وقد سمع كل ما جرى من حديث، وكان يمسك بسلاحه وقد قرر أن يساند والده إذا ما أضطر لذلك، وعندما سلم والده سلاحه لصديقه كبادرة منه أمام مرافقيه، فهم خليل أن بندقيته أصبحت الآن سلاحهم الوحيد. ولكن والده ناداه أن يحضر الفرس، "فلم يعد هناك داع للبقاء". ووقف في باب الدار يشيع بنظره صديقه ومرافقيه، ولكنه لم ينتبه إلى ذلك الذي كان يراقبه من جهة بيت "شحادة"، وما أن تأكد هذا من ذهاب الخيالة وبقاء يعقوب

بالخارج وبدون سلاح حتى اقترب بهدوء بين السناسل وأطلق عليه النار فسقط على الفور وولى هو هاربا باتجاه بيت "الحاج"، وكان خليل قد فك الفرس وأخرجها فلمح شخصا يركض بعد سماعه الرصاص، ولكنه لم يعلم أن والده أصيب، لأنه كان اعتقد أنه قد دخل إلى البيت، فتوجه إلى باب الدار ليستطلع الأمر، فإذا بوالده مضرجا بدمه على الباب الذي لم يزل مفتوحا، فلم ينظر إلى الجثة بل ركض إلى الخارج لاحقا بذلك الرجل الذي رأه يهرب، وما أن وصل إلى بيت "بومطر" حتى لمحه ثانية ينزل باتحاه العين، فتقدم إلى حيث أمكنه أن يرى الطريق، وقد كان القمر بدا يعطي شيئا من ضوئه، وانتظر أن يمر أمامه، وقد صوب سلاحه على نقطة من الطريق سيمر فيها دون شك، وما هي إلا لحظات حتى كان الطلق يستقر بذلك القاتل فيرديه. وعاد خليل يتفقد والده فوجده وقد لفظ أنفاسه، فأدخله إلى الدار وأغلق الباب وركب الفرس وانطلق يجري باتجاه الجنوب.

أما حمد فكان عندما سمع أول طلق "نقذه قلبه" وفكر بالرجوع، ولكنه حسب حساب مرافقيه الذين لم يكونوا كلهم على رايه، وخاف من العاقبة، وقد بدا أن التطرف سيد الموقف الآن، ولكنه عندما سمع الطلق الثاني أحس بالارتياح نوعا ما، فنعر فرسه وأكمل طريقه...

وفي فلسطين إستقبل أهالي الجش وكفر برعم المسيحيون، من وصل من اخوتهم أبناء عين إبل المنكوبة وقد فتحوا بيوتهم وقلوبهم وكانت تربطهم صداقات وقرابة مع الكثيرين، والأهم من ذلك روح العطف التي تنمو وتظهر في الملمات خاصة بين من تجمعهم روابط حضارية أو جغرافية أو دموية...

في اليوم الثاني وصل أمر إلى الجش وكفربرعم من الحاكم العسكري في صفد بوجوب إنتقال المهجرين إلى هناك حيث جهزت المدرسة لاستقبالهم. وهكذا رحل أغلب الذين وصلوا إلى هاتين القريتين إلى مدينة صفد ونزلوا بالمدرسة. وجاء من أجرى إحصاء للعائلات المنكوبة وسجل الأسماء وقد وزعت بعض البطانيات ثم قامت جمعية يهودية بتأمين وقعة طعام صباحية ومسائية لكل الذين كانوا ينزلون في المدرسة، وقد اهتم الحاكم أيضا بتأمين بعض المواد الغذائية

الضرورية وتوزيعها على المحتاجين، ولكن كثيرين من الأهالي استمروا بضيافة الأصدقاء أو الأقارب، وقد نزل أبو بركات والعائلة ببيت صديقه "ادوار أفندي" الذي كان تاجرا معروفا وشخصية منظورة في صفد. وقد وضعت أم يوسف طفلها في اليوم الثاني على وصولهم إلى صفد في المستشفى هناك وأسمته "وديع". وبقي البعض في الجش وكفربرعم بينما توجه آخرون إلى أصدقاء في قرى الجليل مثل أبو سنان وغيرها ووصل قسم منهم إلى حيفا.

في ابو سنان وصل مع الصباح خبر "أبو روفائيل" وأبنه إلى عائلته وقد كانت "أم رفائيل" مشغولة البال فلم يصل زوجها ولا "روفائيل" ولا "بولس" الصغير وعندما وصل الخبر فقدت صوابها ولم تعد تدري ماذا تفعل ولا يزال معها طفلة وولدان صغيران عدى عن "ماري" التي قررت على الفور أن تبقى والدتها مع الصغار وتعود هي مع "يوسفية" إلى عين إبل، مهما كلف الأمر، لتبحث عن شقيقها بولس. وهكذا كان فلم تمض ساعة على ذلك إلا وانطلقت باتجاه البلدة ودون أن تخبر أهل البيت الذي كانوا ينزلون فيه كي لا تحرجهم فيخاطر أحدهم بالذهاب معها. ولما كانت أبو سنان تبعد عن عين إبل مسيرة نهار ولم تستعملا وسيلة نقل فقد اسرعتا لا تلويان على شيء فوصلتا إلى البلدة بعد غياب الشمس.

كانت السنة اللهب لا تزال تتصاعد من بعض البيوت يرافقها شيء من الدخان وبدأت الجثث التي تركت في أماكنها، وقد مضى عليها نهار كامل، تتحلل وتنبعث منها روائح نتنة. وصلت "ماري" و"يوسفية" إلى البيت فوجدتا ذلك المنظر الرهيب، فبكت ماري والدها وشقيقها، ولكن بنفس الصمت الذي رافقها منذ انطلاقها، فلم تنطق بكلمة، ولكن دموعها سالت بغزارة عند رؤيتهما. ثم قلبتهما ومسحت وجهيهما بدموعها، وكانت يوسفية تبكي وتشهق فالمنظر يلوي القلب؛ فلم تكن ماري قد تجاوزت السابعة عشرة من العمر، في عز صباها وجمالها، وقد تدلى شعرها على وجنتيها يغطي ذلك الوجه الجميل الذي زينته عينان خضراوان كانتا تسلبان الأبصار والقلوب، ولكنها في هذا الموقف بدت صلبة متماسكة تشابه اللبوة في منظرها، وقد غطاها

الحزن الممزوج برغبة في الانتقام وأسى لا يشابهه شيء، ولكنها قالت ليوسفية بعد دقائق على وصولهما:

- لن نضيع الوقت وسوف ندفنهما قبل أن نعرف ما حل ببولس.

فدخلت يوسفية إلى البيت وأحضرت رفشا ومعولا وبدأت بحفر حفرة في الحاكورة تحت البير، وكانت أرض الحاكورة سهلة للحفر فلم تأخذ وقتا طويلا لتصبح مقبولة لكن ماري قالت لها:

- سوف نجعلها أكبر من ذلك وساذهب أنا إلى "الخشخيشة" في المقبرة الجديدة وأحضر تابوتا لكل واحد منهما وندفنهما كما يليق.

فاقنعتها يوسفية أن تنتظرها لأنها تخاف البقاء وحيدة، ولكنها بالواقع كانت تخاف عليها، فكيف ستذهب فتاة مثلها إلى المقبرة ليلا وفي قرية مهجورة، حيث يكمن في كل مكان خطر غير منتظر، ولكنها لم تجرؤ على قول ذلك، فتظاهرت هي بالخوف، وتحايلت بمد الحديث حتى أكملت عملها، فذهبتا إلى المقبرة الجديدة التي كانت قد بنيت على شكل جوارير في كل منها مدفن، فأحضرتا نعشين ثم وضعتا الجثتين فيهما ودفنتاهما كما يجب. بعدها ذهبتا إلى دار خالها، وكان عجوزا لا يبصر، فوجدتاه لا يزال على قيد الحياة وقد بقي وحيدا في بيته، وأخبرهما أن بولس حي يرزق وقد أخذه "الحج محمد" الذي كان جارهم بالكرم إلى حانين ليخبئه عنده بعد أن علم بما جرى لوالده وأخيه. فلم تنتظرا الفجر بل ذهبتا فورا إلى حانين إلى بيت "الحج محمد" الذي ذهل لقدومهما في مثل هذه الساعة من الليل وحيدتين وفي هذه الظروف، ولكنه أعتقد أن هناك من ينتظرهما، فاعطاهما الولد وتأسف على صديقه، ونزلتا باتجاه عين حانين لتشربا قليلا من الماء قبل أن تكملا الطريق بصحبة شقيقها الصغير هذه المرة...

عند وصولهم إلى العين صادفهم شاب من حانين كان ينام مع قطيعه قرب العين فأراد التحرش بماري، ولكنها كانت قد أخذت تذكارا من والدها قبل أن تدفنه، خنجرا لم يكن يفارقه كان أهداه له فارس بدوي

يرجع بنسبه إلى أمراء من الغساسنة كانوا ينزلون بوادي الأردن وكان عزيزا عليه، ولذا أرادت ماري الاحتفاظ به، وعندما حاول هذا الاقتراب منها، سحبت الخنجر وغرسته في صدره وقالت له بثقة القادر ورغبة الإنتقام ترن في صوتها وقد صرت أسنانها وجحظت عيناها:

- إرحل أيها الخسيس قبل أن أمزقك إربا...

فابتعد راكضا لا يلوي على شيء وقد ذعر وأحس برهبة الموقف...

كان خوري الحدادين قد بقي في البلدة ولم يشأ الهرب إلى فلسطين، فقد كان له اقارب في "تبنين" ولم يسمح أهالي البلدة هناك للمسلحين بالمساس بهم طيلة الأشهر الماضية، ولذا فقد كان يحاول أن يجد وسيلة للوصول إليهم. فاختبأ في تبانه بالبيت طوال الليل، وعند الصباح، وقد كان خف عدد الغرباء في البلدة، خرج من البيت ليتفقد ما يجري، وكان المنظر يلوي القلب. فقد اندلعت النيران هنا وهناك وسقطت بعض البيوت التي احترقت، وكان سطح الكنيسة لا يزال مشتعلا ومنازل كثيرة من حولها ثم سمع وقع حوافر خيل، وكان منظر البلدة قد أثر به فلم يكن قد تصور ما جرى في المساء لأنه كان دخل إلى بيته وأختبأ طوال الليل، فلم يابه لذلك القادم ولم يحاول الاختباء أو حتى الدخول إلى البيت فإذا بالرجل يحييه ويسأله عن خوري الحدادين فأجابه:

- وصلت يا أبني شو المطلوب؟.. وإذا كان بعدكن ما شبعتوا دم أنا حاضر... ما حدا أحسن من حدا...

فأجابه ذلك الشاب، وكان يركب فرسا من الأصايل وقد تزنر بالرصاص وفتل شاربيه الكثيفين على طريقة مرافقي البيك، بأنه أرسل للتفتيش عنه من قبل البيك واصطحابه إلى حيث يشاء.

وكان البيك قد حضر صباحا مع حفنة من الرجال وحين نظر إلى البلدة وهي تحترق، وقد كانت سابقا تعج بالحياة والحركة، وروائح الخير والبركة تفوح من كل بيوتها وشوارعها، وكان يشتهي أن تتشبه قرى المنطقة بها وبرجالها، ومع أنه لم يكن راضيا على موقفها الذي أعتبره نوعا من التحدي للتيار الذي لم يستطع هو أن يحاربه؛ فقد "تخلصنا

من الأتراك صحيح ولكن أتانا الفرنسيون من جهة والأنكليز وعرب الحجاز من جهة أخرى". وبالنسبة له لو لم يكن "الشريف" من "آل البيت[٣٠]" لكان فضل الوقوف جهارة مع من يطالبون بوطن مستقل، "فقد كفانا ظلما ممن يدعون الوصاية علينا وحق القربى"، "فظلم ذوي القربى أشد مضاضة.." ولكن تردده في اتخاذ موقف صريح خوفا من حساسية الموضوع الديني، جعل الرعاع الذين حركتهم أجهزة غريبة يسيطرون على الموقف ويحركون الأمور في طريق المواجهة، ولم يعد حتى هو نفسه قادرا على اتحاذ القرارات. ولكنه رأى بهذه النتيجة، اليوم، لعنة سوف تلحق بالأجيال ونقطة عار ستلطخ إلى الأبد تاريخ هذه المنطقة[٣١] التي كان يحلم، بعد أن زال الكابوس التركي، أن تصبح مركز نشاط واستقرار وحركة بين لبنان وفلسطين والشام. وقد كان يرى في هذه القرية، التي انفتح أبناؤها على حضارات العالم فتعلموا بمدارسها منذ أكثر من خمسين سنة على أيدي المرسلين، وهاجروا إلى بلاد الله الواسعة، وأغتنوا بالمال والمعرفة وسعة الآفاق، مثالا حيا على النشاط الذي يسهم في الازدهار في منطقة هو زعيمها، وإن لم يكن هؤلاء من أهل ملته. ولكن الحقد والتطرف أعميا العيون حتى "أننا لم نعد نعرف ما نقوم به، فماذا فعلنا غير النهب والسرقة وقتل بعض الأبرياء؟".. ثم أرسل ذلك الشاب للبحث عن الخوري الذي كانت له علاقة خاصة به، ولم يستطع مواجهته، فقال للرسول أن يساعده في الوصول إلى حيث يشاء إن لقيه حيا، ورحل مع مرافقيه قبل أن يعرف النتيجة. وهكذا فقد ساعد ذلك الشاب، الخوري في الوصول إلى تبنين حيث كان أقاربه...

... وبعد سنة على هذه النكبة التي دمرت عين إبل وهجرت بنيها، عاد أهلها ليبنوها من جديد بسواعدهم ونشاطهم وبالقدرات الذاتية بالرغم من كل شيء. وبعد أن لملموا الجراح ودفنوا القتلى، كبتوا الحقد، الذي نتج عن ذلك، في قلوبهم، فالحياة ستستمر والوطن الذي حلموا به ها هو قد ظهر وتحدد، ولو بدمائهم، وقد اصبح لبنان الكبير أول دولة

---

[٣٠] حول هذا الموضوع راجع "الأمة القلقة" وضاح شرارة صفحة ٢٤٧ - ٢٦٤

[٣١] فقد قال أمام الخوري يوسف في لقاء في صالحة بعد الحادثة "صحيح أن أهالي عين إبل خسروا أرواحهم ولكن الشيعة خسروا شرفهم"

تقوم في المنطقة، وبدت الأمور كأنها تسير في الاتجاه الصحيح. ولكن الذي مات لن يعود، ومن فقد ثروة إضطر إلى الكفاح من جديد، ومنهم من لم يعد يرى في هذه البلاد كلها ما يشده للبقاء فهاجر مجددا إلى بلاد الله الواسعة للعمل، حيث لا مجال للانتماء إلى جماعة ولا حاجة للقتال في سبيل شيء ويتلخص الجهد في الحصول على القوت وبعض الرفاه إذا أمكن. وقد فتحت أبواب مثل "حيفا" حيث كان المرفأ الجديد الذي كان أنشئ مع بداية القرن يحرك التجارة ويستقبل سفنا أكبر من تلك التي كانت تأتي إلى صور وصيدا سيما مع سيطرة الأنكليز على فلسطين والداخل. وكانت "الكوبانيات" اليهودية تعمل على إنشاء مراكز إنتاج وعمل وأستقرار للمهاجرين من اليهود الذين زاد عددهم مع نهاية الحرب العالمية الأولى. وقد حركت هذه العملية التجارة وزادت مجالات العمل في المدينة ككل. وكان من وصل اثناء التهجير إلى حيفا، قد رأى أوضاعا أغرت البعض منهم بالعودة للعمل فيها بدل الاستقتال للحصول على لقمة العيش، في بلاد تعاني تمزقا داخليا وفي قرية لهم في كل شارع من شوارعها ذكرى أليمة. وقد كان هناك جالية صغيرة العدد من العينبليين الذين سكنوا حيفا منذ بداية القرن وعملوا مع الجالية الألمانية فيها. ولكن هذه الفئة، بحمد الله، لم تكن كبيرة. واستمرت البلدة في تضميد جراحها وإعادة البناء، حتى كان الخامس من ايار من السنة الأولى بعد العشرين يوم ذكرى مهيب، وقد جمعت رفات الشهداء ووضعت بالقبر الذي بنوه بالجهد والاندفاع الذي تحلوا به طوال السنة بعد عودتهم، وبواسطة بعض الهبات التي أرسلها إخوتهم المهاجرون[٣٢] في ما وراء البحار، وقد سمعوا بما حل بقريتهم. وقد كانوا أعادوا بناء بيوتهم وزرعوا حقولهم وأصلحوا الكنيسة، لكن الرصاصات التي كانت أطلقت على حمامة الروح القدس وفتحت ثغرتين تحت جناحيها بقيتا شاهدتين على ذلك النهار. ثم بنوا بقربها قبر الشهداء، كبيرا كي يتناسب مع الماساة، وبجانب الكنيسة التي يعتزون بها، ليكون شاهدا على تضحياتهم في سبيل قريتهم والوطن، وحافزا لهم للأستمرار في اليقظة والتعاون والوحدة رحمة بهؤلاء

[٣٢] بلغت قيمة المرسل من الأرجنتين والذي استعمل في بناء القبر ٢٠٠ ليرة ذهب أنكليزي

الذين بذلوا النفس ليبقوهم رافعي الرأس في هذه المنطقة التي لم يتركوها منذ أكثر من ثلاثمئة عام. وقد كان احتفالهم الأول جامعا. وحضرت وفود من قلب لبنان. وألقيت خطب بالمناسبة وكلمات وقصائد نوه فيها الخطباء بالبطولات والتضحيات. وهكذا فقد اعتبروا هذا اليوم يوم الشهداء منذ ذلك التاريخ. وظلوا يحتفلون به كل سنة. وبقي القبر، بهيبته، مزارا ومعلما وشاهدا للتذكير بالحادثة. وقد كبر الأطفال وتعلموا أن هذه البلدة قد بقيت بالبذل والتضحية، وأن لها على الوطن الاحترام والتقدير. وقد كان في نفس الوقت شوكة تؤلم لأنها تذكر بتقاتل أبناء المنطقة وتباين آرائهم واختلاف أمنياتهم، فقد كان إبن عين إبل يعتز دائما بانتمائه للوطن ويشعر أن له عليه، بينما ظل يعتقد أن جيرانه في المنطقة لا يشاطرونه الشعور نفسه وأنه في حال ضعفت السلطة قد يغيرون انتماءهم وقد يرتد عليه ذلك كما حدث في العشرين...